

مكتبة نوبل

اسم المؤلف : غابرييل غارسيا ماركيز
عنوان الكتاب : خريف البطريَرك
المترجم : محمد علي اليوسفي
الناشر : المدى
الطبعة الثانية : سنة ٢٠٠٥

Author :Gabriel Garcia Marquez
Title : The Autumn of the Patriarch
Translator: Mouhamed ali al-yousfi
Al- Mada P.C.
First Edition : 2005

دار المدى للثقافة والنشر

سورية - دمشق ص. ب.: ٨٢٧٢ او٧٣٦٦ -تلفون: ٢٣٢٢٢٧٥ -٢٣٢٢٢٧٦-فاكس: ٢٣٢٢٢٨٩

Al Mada Publishing Company F.K.A. - Damascus - Syria
P.O.Box . : 8272 or 7366 .-Tel: 2322275 - 2322276 , Fax: 2322289
www.almadahouse.com E-mail:al-madahouse@net.sy

لبنان -بيروت-الحمراء-شارع ليون -بناية منصور-الطابق الأول - تلفاكس: ٧٥٢٦١٦-٧٥٢٦١٧
E-mail:al-madahouse@idm.net.lb

العراق - بغداد- أبو نواس- محلة ١٠٢- زقاق ١٣-بناء ١٤١
مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون - **جانب فندق السفير**
تلفون: ٧١٧٠٢٩٥-٧١٧٠٥١٣ فاكس: ٧١٧٥٩٤٣
www.almadapaper.com
almada112@yahoo.com almada119@hotmail.com

١٩٨٢
مكتبة نوبل

غابرييل غارسيا ماركيز

خريف البطريرك

ترجمة: محمد علي اليوسفي

تقديم

موسوعة تعج بأغاني الساحل الكولومبي وألحانه، حيواناته وأعشابه، طرائفه ومآسيه، قصص حب وهمية وحقائق دموية، سحر وتعاويذ، مآدب من لحم بشري متبّل، وبحر يباع قطعاً مرقّمة. رواية مفزعة يتجاوز بها غابرييل غارسيا ماركيز حدود أمريكا اللاتينية، ودكتاتور كلّي الوجود يعلن حالة الحرب على كل منافسيه، من الأطفال إلى الكرسي البابوي في روما وصولاً إلى الله: أنا الربّ، يقول في ذروة خريفه، عاش أنا. ويموت ضحاياه: أطفال ومعارضون، رجال دين ومتمرّدون، هنود وهندوسيون، عرب ومضطهدون آخرون. عاش أنا، يقول. غير أنه في النهاية يجد نفسه وجهاً لوجه مع الموت في صفحات رائعة يكثف فيها ماركيز الوجه الآخر للحياة، الحياة التي لم يكن البطريرك يراها إلا من القفا.

قبل أن ينتهي زمن الأبديّة الهائل، وقبل أن تدق أجراس الحبور وتعلو معزوفات التحرّر، ومنذ طفولة البطريرك إلى تولّيه السلطة أو، بالعكس، منذ تولّيه السلطة إلى طفولته الأولى التي نتعرف عليها مندغمة ومتزامنة مع طفولته الثانية، حسب تسلسل الأحداث وتداخلها في الرواية، يوجد زمن مغلق هو الحيّز الذي تدور فيه أحداث رائعة

ماركيز هذه. حركة دائرية مغلقة ونشيد مذهل ضد الدكتاتورية، بأسلوب يجمع بين الشعر والموسيقى والسيناريو السينمائي.

لعلّ صعوبة الرواية تكمن في الجهد الذي على القارئ أن يقوم به لإعادة تركيب الأحداث. ذلك أن الرواية، بعد المشهد «البانورامي» الأوّل، تنطلق، مثل سمفونية مؤثرة، في حركة دائرية تجمع بين أحداث ماضية وتلميحات إلى أحداث أخرى آتية، ويتكرر فيها عزف آلات الرعب نفسه، والأناشيد المتوحشة نفسها، والصفير المكتوم المنبعث من فتق البطريرك نفسه.... غير أن اللازمة الغنائية تأتي، مع نهاية كل فصل أو خلاله، أكثر غنى وإيحاء... يموت البطريرك... لكننا نكتشفه على لسان الرواة، في الفصل اللاحق، حيّاً، وفي ذلك إيحاء بتعاقب اللحن الجنائزي ذاته -كان موته موتاً طبيعياً مزيّفاً- ولأن خليفته لا يختلف عنه، فقد عاش البطريرك ما بين ١٠٧ و٢٣٢ عاماً... إنه نموذج ١٤ جنرالاً تعاقبوا على السلطة (بعد أن يطفئ البطريرك كلّ الأضواء في قصره يلتحق بغرفة نومه وفي يده مصباح، يرى نفسه منعكساً في المرايا جنرالاً واحداً، ثم جنرالين اثنين، ثم أربعة عشر جنرالاً) يقول ماركيز، ضمن إيقاع متكرر في الرواية: حياة/ موت/ موت مزيّف/ حياة/ موت/ موت مزيّف/ للبطريرك. حتى النهاية: موت حقيقي - سقوط الدكتاتورية وخروج الحشود إلى الشوارع..

* * *

في هذه الترجمة العربية -التي تمت عن الفرنسية مع تدقيقها على النص الإسباني، لوجود بعض التصرّفات التي لم تكن موفقة دائماً في النص الفرنسي- حاولت نقل المناخ الروائي بما في ذلك طبيعة الصورة

وإيحائية اللفظة، دون اللجوء إلى الأشكال الكلاسيكية في اللغة العربية من حيث بنية الجملة أو مدلولها الحسّي الملموس، خصوصاً وأن الشعر العربي الحديث قد قطع شوطاً لا بأس به في هذا المجال. زد على ذلك أن ماركيز في روايته هذه يكثر من استعمال الصور المبتكرة والكلمات المجنّحة بالإضافة إلى اعتماده الجملة الطويلة التي تمتد صفحات وصفحات من دون تقسيمها إلى جمل أو مقاطع، الأمر الذي يعني أن هناك سطراً متواصلاً من أول الفصل إلى آخره، مع عدم وضع علامات الوقف بالنسبة للحوار أو الصيغ الاستفهامية الخ.. ولقد اضطررت إلى إضافة بعض الفواصل فقط لتفادي التباس المعنى في النص المعرّب كما توخّيت التقديم والتأخير في بعض الجمل والنعوت (الكثيرة) لتحافظ الجملة على استدارتها اللاهثة ربطاً بالأسماء الموصولة أو بالإضافة.

عمدت مراراً إلى تقوية الفعل في النص العربي، بذكر الضمير الغائب (هو) مع الفعل تأكيداً على الشخصية الوحيدة الغائبة- الحاضرة دائماً في الحوار: أي البطريرك ذاته، باعتباره محور الأشياء والأحداث والشخصيات الأخرى، التي تتراوح بين رواة عديدين بصيغة المتكلم (المفرد أو الجمع)، وراوية بصيغة الغائب يلتقط الكلام من فم الجنرال مباشرة أو من فم باقي الرواة، ليربط بين الأحداث (الأمر الذي يؤدي إلى انتقال صيغة الجملة من المتكلم إلى الغائب وأحياناً المخاطب.. في السياق عينه).

بالنسبة للحوار الذي يأخذ شكل التداعي، فإنه يأتي من دون تمهيد أو حصر بين مزدوجتين، كما لو كانت هناك كاميرا تسلّط مباشرة على المتكلّم.. من دون تمهيد له أو تعريف بشخصيته التي نكتشفها نحن،

فيما بعد، من خلال الحوار أو تقدّم الأحداث. وهو أسلوب يذكرنا جزئياً بجيمس جويس وفولكنر (الصخب والعنف) وكذلك السيناريو السينمائي الذي تفرغ له ماركيز في فترة سابقة من نشاطاته الفنية.

ويستخدم ماركيز في روايته كلمات تنساب متألقة في شفافية محاولاً، كما يقول، أن يجمع بين «الصورة والموسيقى». وهكذا يتحوّل الخاتم مثلاً إلى «حجر مياه صباحية» في الإصبع، ويصدر البطريرك من فمه وهو يأكل الموز «صوت حنفيّة». وتجمع لغة الرواية بين الأسلوب التقريري والشتائم السوقية والإيحاء الشعري. ولم أتوان، أمام ما تحفل به الرواية من شتائم لاذعة وصور جنسيّة مباشرة، عن المحافظة على روح النص الأصلي و«مستوياته اللغوية» في الحدود التي تسمح بعدم الإغراق في لهجة محلية عربية على حساب فهم القارئ ذي اللهجة المختلفة.

يقول ماركيز عن «خريف البطريرك» إنها أصعب من «مائة عام من العزلة»، وإنه كثيراً ما كان يكتب خمسة أسطر في اليوم ليلقي بها في القمامة في اليوم التالي. وبعد أن تم رفع الحظر عن الرواية في تشيلي «لأن الحكومة التشيلية تفضل عدم إثارة فضيحة من دون فائدة»... ذلك أن كتاب خريف البطريرك، «كتاب عسير، غير جماهيري جداً...» تساءل ماركيز: «ماذا عسى أن يحدث لو نشرت الآن كتاباً على نطاق واسع تكون قراءته في متناول جمهور واسع من القراء مثل مائة عام من العزلة»!!

***

أخيراً، أشير إلى بعض التصرّف فيما يتعلّق بتعريب «دروس القراءة والكتابة» التي كان يتلقّاها البطريرك عن عشيقته، ثم «زوجته الشرعية الوحيدة» فيما بعد، كما يحبّ أن يقول، نظراً لكون دروسه كانت تتمحور حول الأصوات والجِناس والحروف المتشابهة الخ..

كما فضلت ترجمة بعض الأغاني واللازمات الغنائية، شعراً.. ليحافظ النصّ على زخمه وجماليته.

محمد علي اليوسفي

انقضّت العقبان على شرفات القصر الرئاسي خلال نهاية الأسبوع، فحطّمت شِباك النوافذ المعدنية بضربات مناقيرها، وحركت الزمن الراكد في الداخل برفيف أجنحتها، ومع بزوغ شمس يوم الاثنين استيقظت المدينة من سبات قرون عديدة على نسمة رقيقة ودافئة، نسمة ميِّت عظيم ورفعة متعفّنة. عندئذ فقط تجرأنا على الدخول، من دون مناطحة الجدران الحصينة المنزوعة الملاط، كما كان يرى أكثرنا أقداماً، ومن دون خلع المدخل الرئيسي بأعمدة نير الجواميس، كما اقترح آخرون، إذ أن دفعة واحدة كانت كافية لخلع الأبواب الثقيلة المصفحة عن مفاصلها، تلك الأبواب التي صمدت خلال عصر البطولات لمنجنيق وليم دامبييه. لقد خيل إلينا أننا كنا ندخل أجواء عصر آخر، إذ أن الهواء كان أكثر خفة في مستنقعات أنقاض هذا العرين الرحب للسلطة، وكان الصمت فيها أكثر قدماً، ورؤية الأشياء صعبة في الضوء الذاوي. على امتداد الباحة الأولى التي تزحزح بلاطها بضغط الأعشاب الطفيلية من تحت الأرض، شاهدنا مركز الحراسة تعمه الفوضى بعد هرب الحراس، والأسلحة المهجورة في الخزائن، كما شاهدنا طاولة الخشب الخشن الطويلة مع صحون فيها بقايا من غداء يوم الأحد الذي قطعه الذعر، شاهدنا السقيفة، مقر الخدمات المدنية تحت النور المغبش، نباتات الفطر بألوانها الفاقعة والزنابق الشاحبة ما بين عرائض الالتماس التي كانت لاتزال في

حالة انتظار، وقد كان السير الطبيعي للنظر فيها أبطأ من أكثر الحيوات إجداباً، شاهدنا في وسط الفناء جرن المعمودية حيث تمّ تعميد أكثر من خمسة أجيال بسيل من القرابين العرفيَّة، وشاهدنا في المؤخرة إسطبل حكام المستعمرات وقد غدا مرآباً للعربات، وبين زهور الكاميليا والفراشات شاهدنا سيارة زمن الضجيج البرلينية، عربة الطاعون، مركبة السنة التي ظهر فيها النجم المذنب، عربة الموتى إثر التطور في عمليات التأديب، سيارة الليموزين التي تبدو كمن يسير في نومه والعائدة إلى القرن الأول للسلام، كلها كانت في حالة جيدة تحت نسيج العنكبوت المغبر مطلية بألوان الراية الوطنية. في الباحة التالية، وخلف سياج مشبك، كانت توجد أشجار الورد المعفّرة بغبار قمري حيث كان البرصى ينامون تحت ظلالها في أيام عظمة القصر، ولقد تكاثرت وهي مهجورة من دون اعتناء، حتى كادت تنعدم أية فجوة خالية من الرائحة، في ذلك الهواء الممزوج بنتونة كانت تصلنا من آخر الحديقة، مع عفونة قن دجاج ونتانة الروث وتخمّر بول الأبقار وجنود البلاط الاستعماري الذي حوّل إلى إسطبل لحلب البقر، شاهدنا، ونحن نشق طريقنا عبر الدغل الخانق، الرّواق بشرفاته المقوسة المزدانة بأصص القرنفل وأوراق «الاستروميلياس» والنباتات المعرّشة التي كانت تغطي أكواخ المحظيات، ونظراً لتنوّع البقايا المنزلية وعدد آلات الخياطة فقد قدرنا بأن أكثر من ألف امرأة قد عشن هنا مع مجموعة أطفالهنّ الخُدج(١)، شاهدنا فوضى المعركة في المطابخ، والغسيل المتعفّن في السطول تحت الشمس، والقاع المفتوح للمرحاض المشترك المخصص للمحظيات والجنود، وشاهدنا في المؤخرة الصفصاف البابلي الذي نُقل بحراً بجذوره وترابه ونسغه

وزاذه من آسيا الصغرى في مستنبتات زجاجية، وخلف الصفصاف شاهدنا مقرّ الحاشية المدنية رحباً وكئيباً، ومشربيات النوافذ المثلمة التي كانت العقبان تواصل تسللها منها. ولم نكن بحاجة إلى خلع المدخل، كما كنا ننوي، فقد بدت البوابة الرئيسية كأنها تفتح بقوة ضغط الصوت فقط، الأمر الذي مكّننا من الصعود إلى الطابق الأول عبر سلم حجري سحقت سجادات الأوبرا التي تغطيه بأظلاف البقر، ومن بهو الدخول حتى غرف النوم الخاصة شاهدنا المكاتب والقاعات الرسمية التي كانت الأبقار تجوبها جيئة وذهاباً دونما اكتراث وهي تأكل ستائر المخمل وتلوك ساتان الأرائك، شاهدنا لوحات بطولية تمثل قديسين وعسكريين ملقاة على الأرض بين الأثاث المحطم ولطخات من روث البقر الطري، شاهدنا قاعة أكل أتت عليها الأبقار، قاعة الموسيقى وقد انتهكها صخب الأبقار، طاولات الدومينو محطمة ومروج لعبة البلياردو وقد جزّتها الأبقار، شاهدنا آلة المراوح مهجورة في زاوية، وكانت تزيف كل ظواهر دولاب الهواء بفروعه الأربعة، لكي يتحمل سكان المنزل وطأة حنينهم إلى البحر المفقود، شاهدنا أقفاص طيور معلقة في كل مكان وهي لاتزال مغطاة بقماش الكريطون القطني، الذي ظل يحمي نوم الطيور لعدة ليال من الأسبوع الماضي، وشاهدنا، عبر النوافذ العديدة، الوحش المديني، قابعاً في براءة يوم الاثنين التاريخي الذي بدأ يعيشه، وفيما وراء المدينة، شاهدنا الرماد القمري الخشن لفوهات البراكين الخامدة المحاذية للسهل الممتد من دون نهاية، حيث سبق للبحر أن أقام. في هذا المكان المنيع المحظور، الذي لم يتمكن من معرفته سوى القليل النادر من الناس ذوي الامتياز، شممنا للمرّة الأولى رائحة جيف العقبان، وأدركنا نسمتها

القديمة وغريزتها المنذرة وقادتنا ريح أجنحتها المتفسخة إلى قاعة الاجتماعات حيث اكتشفنا هياكل الأبقار التي نخرها الدود وكانت مؤخراتها الأنثوية متكررة في المرايا الكبيرة، حينئذ دفعنا باباً جانبياً ينفتح على مكتب مخفي في الجدار، وهناك رأيناه، هو، ببدلته الكتانية الخالية من الشارات، ولفافات ساقيه ومهمازه الذهبي على الكاحل الأيسر، كان أكبر سناً من كل الرجال ومن كل الحيوانات القديمة في الأرض وفي الماء، كان ممدداً على الأرض وساعده الأيمن مثنيٌ تحت رأسه على هيئة وسادة، مثلما تعوّد أن ينام، ليلة أثر ليلة، كل ليالي حياته الطويلة كطاغية متوحد. وعندما قلبناه لنرى وجهه أدركنا أن من المستحيل علينا التعرف إليه، حتى وإن لم تكن العقبان قد نقرت وجهه، ذلك أن أحداً منا لم يسبق له أن رآه قط، رغم أن صورته الجانبية كانت مرسومة على وجه العملة وقفاها وعلى طوابع البريد وشهادات نقاوة الدم وعلى أحزمة الفتق والكتفيات، ورغم أن منحوتته الحجرية المبرْوزة، مع تنّين الوطن والعلم الوطني المتقاطعين على صدره، كانت معروضة في كل مكان وفي كل ساعة، لقد كنا نعلم أنها لم تكن سوى نسخ منسوخة عن نسخ لرسوم سبق وأن اعتبرت مشوهة في زمن النجم المذنب، عندما كان آباؤنا يعرفون من يكون، لأنهم استمعوا لروايات آبائهم، تماماً كما سمع آباء آبائهم عن آبائهم، فعودونا منذ طفولتنا على الاعتقاد بأنه حيّ في بيت السلطة، لأن أحدهم رأى مصابيح النور المركز تضاء ذات ليلة من ليالي الحفلات، وروى أحدهم لقد رأيت العينين الحزينتين والشفتين الشاحبتين واليد المتأملة التي تلوح بالوداع إلى لا أحد، عبر زخرفة مذبح عربة الرئاسة، وذات يوم أحد، أصبح موغلاً في البعد الآن، أحُضِر

الأعمى الجوّال الذي ألقى مقابل خمسة «سانتافو» أبياتاً للشاعر المنسي روبن داريو[٢] ثم عاد سعيداً كما لم يعد أحد بالقطعة النقدية التي ربحها مقابل الإلقاء على شرف الجنرال من دون أن يراه طبعاً، ليس لأنه أعمى بل لأن أي فانٍ لم يلمحه منذ أيام الحمّى الصفراء، ورغم ذلك كنا نعرف حق المعرفة أنه كان فعلاً هناك، لأن العالم كان يتواصل، والحياة تتواصل، والبريد يصل، وجوقة البلدية كانت لاتزال تعزف كل يوم سبت مجموعة الفالس الساذجة تحت النخيل المعفر والفوانيس الكئيبة في ساحة الأسلحة، وكان موسيقيون مسنون آخرون يحلون في الجوقة محل الموسقيين المتوفين. وفي السنوات الأخيرة عندما لم نعد نسمع في الداخل، لا أصواتاً بشرية ولا تغريد عصافير، وعندما أوصدت الأبواب المصفحة إلى الأبد، علمنا أن ثمة أحداً في البيت الأهلي، إذ كنا نرى خلال الليل أنواراً تشبه أنوار الملاحة عبر النوافذ المطلة على البحر، والذين تجرأوا على الاقتراب سمعوا جلبة اجتياح أظلاف وتأوهات حيوان كبير خلف الجدران الحصينة، وذات مساء من شهر يناير لمحنا بقرة تتأمل الغسق من أعلى الشرفة الرئاسية، تخيلوا، بقرة في شرفة الوطن، يا للفظاعة، يا له من بلد قذارات، لكننا قمنا بالعديد من التخمينات، نعم كيف يمكن أن تصل بقرة إلى شرفة إذا كان الجميع يعرف أن الأبقار لا تتسلّق السلالم، وخاصة إذا كانت من الحجارة، والأدهى من ذلك إذا كانت هذه السلالم مفروشة بالسجاد، إلى حد أننا لم نعد نعرف في نهاية الأمر، أرأيناها حقاً، أم أننا خلال مرورنا ذات مساء بساحة الأسلحة حلمنا ونحن نمشي بأننا نرى بقرة على الشرفة الرئاسية هناك حيث لا شيء شوهد ولا كان ينبغي أن يشاهد مرة أخرى لأعوام عديدة حتى فجر

يوم الجمعة من الأسبوع الماضي، عندما بدأت أولى طيور العقبان تصل وترتفع من أفاريز ملجأ العجزة الفقراء حيث تغفو منذ الأزل، كانت تقبل أيضاً من الداخل، وتصل أسراباً متتالية من آخر أفق بحر الغبار هناك حيث سبق للبحر أن أقام، وظلت تحوم يوماً كاملاً في دوائر بطيئة فوق بيت السلطة حتى اللحظة التي أصدر فيها ملك، ذو إكليل وعُرف أحمر، أمراً خفياً فبدأت قرقعة الزجاج المحطم وريح ذلك الميت العظيم، وذلك الولوج والخروج للعقبان من النوافذ وهو أمر لا يمكن أن يحدث إلا في بيت لا سطوة فيه ولا نفوذ، ما شجعنا على الدخول بدورنا، وآنئذ اكتشفنا أنقاض العظمة في الحرم المقفر والجسد المنقّر واليدين الأنثويتين مع خاتم القيادة في البنصر، وكان جسده مبرعماً ببثور الحكاك الصغيرة وبحيوانات أعماق البحر الطفيلية، وخاصة تحت إبطيه وثنية الفخذين وكانت ضمادة من القطن تلف خصيته المصابة بالفتق وهي الجزء الوحيد الذي لم تهاجمه العقبان، رغم أن الخصية كانت بضخامة كلية ثور، غير أننا، وحتى تلك اللحظة، لم نجرؤ على تصديق موته إذ كانت هذه المرّة الثانية التي يكتشف فيها في مكتبه، وعلى هذا الشكل وحيداً مرتدياً ثيابه، ميتاً ظاهرياً ميتة طبيعيّة خلال نومه، كما تنبأت بذلك المياه منذ سنين عديدة في قصعات العرّافات. وأول مرّة اكتشف فيها، مع بدء خريفه، كانت الأمة لاتزال على قدر كاف من الحياة يجعله يحسّ بتهديد الموت له حتى في عزلة مخدعه، الأمر الذي لم يمنعه من الحكم كما لو أن قدره كان في عدم الموت أبداً، ذلك أن القصر لم يكن يشبه قصوراً رئاسية بقدر ما كان سوقاً ينبغي فيه شق طريق ما بين جنود وصفاء حفاة كانوا يضعون سلال الخضار وصناديق الدواجن في الأروقة ويضطرّون إلى

القفز فوق نساء ثرثارات مع أولادهن السّغْب الذين ينامون منكبين على الدرجات في انتظار معجزة الإحسان الرسمي، وكان ينبغي أيضاً تحاشي المياه الوسخة للخليلات اللواتي كنّ يفرغن أواني الزهور من أزهار الليل ليملأنها بأزهار النهار ويفركْن الطوابق ويرددن أغانيَ عن حكايات حب وهمية على إيقاع الأغصان اليابسة التي ينفضن بها السجادات على الشرفات، كل ذلك كان مختلطاً باحتجاجات الموظفين الدائمين الذين يجدون دائماً دجاجات تبيض في جوارير مكاتبهم، بالإضافة إلى ممارسات الجنود والعاهرات في المراحيض، وجلبة الطيور، ومعارك الكلاب التائهة في قاعات الاجتماعات، دون أن يدرك أحد مَنْ كان مَنْ ومَنْ كان موفداً من قبل مَنْ، في ذلك القصر المشرع الأبواب حيث الفوضى الخارقة تمنع من تحديد مقر الحكومة. أما سيد المكان فلم يكن يشارك في هذا العيد الشعبي الحزين فحسب، بل كان يحرص عليه ويقوده، فما أن تضاء مصابيح حجرته حتى تعلو نوبة الصباح من الحراسة الرئاسية، قبل صياح الدّيكة، كي تُبلّغ ثكنة «ديل كوندي» المجاورة بالنهار الجديد وهذه بدورها تكرر التبليغ إلى قاعدة «سان خرونيمو» ومنها إلى قلعة الميناء التي تكررها للنوبات الست المتعاقبة التي توقظ المدينة أولاً ثم البلاد بأجمعها، بينما يتروّى هو، متأملاً في دلوه الصحي محاولاً بكلتا يديه أن يخنق الطنين المتولد في أذنيه، مشاهداً مرور أضواء البواخر على البحر المتقلب، البحر الزبرجدي الذي كان لايزال مرئياً في مجد تلك الأيام، من نافذته. ومنذ أن امتلك البيت، كان يومياً يراقب حلب الأبقار في الإسطبل ويقدّر بيده كمية الحليب التي يتوجب أن تنقلها العربات الرئاسية الثلاث لتوزعها على ثكنات المدينة،

ثم يبتلع في المطبخ قدحاً من القهوة مع كعكة بالبيض دون أن يدرك بالتحديد أين ستجرّه نزوات اليوم الجديد، متنبهاً دوماً لثرثرة الخدم وهم أهل المنزل الذين يتحدث معهم اللغة نفسها ويقدِّر تملّقهم البالغ ويعرف ما يختلج في قلوبهم، وقبيل الساعة التاسعة بقليل يقضي وقتاً طويلاً في الحمام المجهّز بعجين الأوراق المبيدة لمرض الفطر في حوض الصوان المقام في باحته الخاصة تحت ظلال أشجار اللوز، وبعد الحادية عشرة فقط يتوصل إلى السيطرة على انفعالات بداية الصباح ليجابه مصادفات الواقع. أما قديماً، وفي زمن احتلال المارينز[٣]، فقد كان ينعزل في مكتبه ليقرر مصير الوطن مع قائد جنود الإنزال ويوقِّع كل أنواع القوانين والمراسيم بصماً بإبهامه، لأنه كان لا يجيد القراءة ولا الكتابة، ولكن بعد أن تركوه وحيداً مرّة أخرى مع وطنه وسلطته كفّ عن التبرّم بالقوانين المكتوبة التي ليست سوى سخافات وشرع في الحكم شخصياً بصوت حاد في كل آنٍ ومكان، كاشفاً عن هوس بالجزئيات وعن حرص لا يُتَصَوّر لدى رجل في عمره، منزعجاً من حشد البرصى والعميان والمشلولين، المتوسلين الذين يأتون لتلقي ملح العافية من يديه، ومن سياسيين متعلمين ومتملقين بلا حياء كانوا ينادون به قائداً أعلى للزلازل الأرضية، وللكسوف وللخسوف والسنوات الكبيسة[٤] وأخطاء الرب الأخرى، وقد كان يجرجر قائمتيه في كل أنحاء البيت مثل فيل ممعن في الثلوج وهو يحل شؤون الدولة ومشاكل الخدم بالبساطة نفسها التي يأمر بها: انزعوا هذا الباب من هنا وضعوه هناك، ويرفع الباب، ركِّبوه هنا، فيركَّب، أخِّروا ساعة الحائط، عليها ألا تعلن منتصف النهار في منتصف النهار بل في الساعة الثانية ظهراً حتى تبدو الحياة أطول،

وتؤخر الساعة، من دون لحظة تردد، من دون توقف، عدا ساعة الموت، ساعة القيلولة حين يلوذ بظل المحظيات ويختار إحداهنّ، ثم يثب فوقها، من دون أن يعرّيها أو يتعرّى، وحتى من دون إغلاق الباب، بحيث كان يُسمع لهاث لا رحمة فيه، لهاث زوج في حالة استحرام، ورنين متقطع صادر عن المهماز الذهبي، مع تباكيه، تباكي الجرو الصغير، وذعر المرأة التي تبدِّد وقت المضاجعة في محاولة صرف نظرات أبنائها الكدرة عنها، وصراخها اغربوا عن وجهي، اذهبوا للعب في الساحة، هذه ليست فرجة للأطفال، ثم، وكما لو أنّ ملاكاً عَبَرَ سماء الوطن، يخفت الصراخ، تتوقف الحياة ويُذهلُ الجميع، السبّابة على الشفتين، من دون تنفس، صمت، يطلق الجنرال طلقته، غير أن الذين يعرفونه جيداً لم يكونوا لينتظروا شيئاً من هدنة تلك اللحظة المهيبة، إذ كان يظهر دائماً مزدوجاً، فيشاهد وهو يلعب الدومينو في السابعة مساء ويكون في الوقت نفسه قد شوهد وهو يوقد النار في روث البقر ليبعد الحشرات عن قاعة الاجتماعات، ولم يكن أحد ليتعلّل بالأوهام مادامت أضواء النوافذ الأخيرة لم تنطفئ وما لم تسمع قرقعة الرتاجات الثلاثة وهي تغلق، ثم المزاليج الثلاثة ثم الدعامات الثلاث للحجرة الرئاسية، ومالم تسمع صدمة الجسد المنهوك منهاراً على أرض الغرفة، وتنفسه، تنفّس الطفل المغتاظ، وهو يزداد عمقاً مع ارتفاع المد البحري حتى اللحظة التي تسكت فيها قيثارات الريح الليلية أصوات الزّيزان في طبلتي أذنيه وتكتسح موجة ضخمة من ماء وزبد شوارع المدينة العتيقة مدينة حكام المستعمرات والمغامرين والقراصنة وتدخل بغتة البيت المدني من كل النوافذ كما في يوم سبت مخيف من شهر أغسطس، ضخّم حيوانات

بحرية لاصقة في المرايا وترك قاعة الاجتماعات تحت رحمة أسماك القرش الهائجة، متجاوزاً ارتفاع المحيطات ما قبل التاريخ طافحاً على وجه الأرض، والفضاء والزمان، بحيث لم يبق سواه طافياً على بطنه وحيداً فوق الماء القمري لأحلامه، أحلام الغريق المتوحد، ببزة الجندي البسيط الكتانية، ولفافتي رجليه الجلديتين، ومهمازه الذهبي، وساعده الأيمن المنثني تحت رأسه على هيئة وسادة. هذا الوجود المتزامن في كل مكان طيلة الأعوام الحصباء التي سبقت موته الأول، وذاك الصعود بينما كان ينزل، وتلك النشوة أمام البحر بينما هو يحتضر جريحاً بالحب المشؤوم، لم تكن ميزة في طبعه كما أعلن ذلك متملقوه، ولا هلوسة جماعيّة، كما أكد ذلك مغتابوه، كلا وإنما كان بكل بساطة محظوظاً في إمكانية الاعتماد على الخدمات المستقيمة وعلى أمانة الكلب الوفي التي كان يضمنها له باتريسيو أراغونيس، صنوه الكامل الذي اكتشف دون أن يبحث عنه أحد عندما وصلوا بالخبر، سيدي الجنرال، مركبة رئاسية مزوّرة تزور قرى الهنود وتعقد صفقات تجارية رابحة نيابة عنك، لقد رأينا العينين الصامتتين في الظل الجنائزي، ورأينا الشفتين الشاحبتين، واليد الشبيهة بيد الخطيبة المحسنة في قفاز من الساتان وهي ترمي بحفنات الملح إلى المرضى الراكعين في الشارع، وخلف المركبة كان ضابطان مزيفان على فرسيهما يجنيان ثمن نعمة العافية ذهباً، لكن تصور سيدي الجنرال، أي انتهاك للحرمات، أما هو فلم يصدر أي أمر ضدّ المحتال، ولم يطلب سوى الإتيان به خفية إلى القصر، ورأسه مغطى بكيس من القنّب لتفادي أي التباس، وكم شعر بنفسه مهاناً عندما اكتشف أمامه صورته تماماً، ونظيره في كل شيء، سحقاً، هذا الرجل هو

أنا، قال، وفي الواقع كان الشبه إلى حد الالتباس، هذا باستثناء نبرة الاستبداد في الصوت وهي الميزة التي لا ينجح الآخر في تقليدها البتة، وكذلك وضوح خطوط الكف حيث كان خط الحياة يتقوّس بلا موانع حول قاعدة الإبهام رغم ذلك لم يأمر بإعدامه رمياً بالرصاص فوراً، ليس لمصلحة، للاحتفاظ به كنائب رسمي، إذ أن هذه الفكرة لم تخطر له إلا فيما بعد، وإنما توهماً منه وخوفاً من أن تكون رموز مصيره مرسومة على كف المحتال. وعندما تأكد من أباطيل مثل ذلك الوهم كان سبق لـ باتريسيو أراغونيس أن نجا من ست محاولات اغتيال لم تترك فيه أثراً، بل إنه اكتسب عادة جرّ قدميه المفلطحتين بفعل ضربات المطرقة، وصار لأذنيه طنين، ولفتقه موسيقى تشدو له في صباحات الشتاء، وتعلّم خلع المهماز الذهبي وإعادة وضعه كما لو كان ربط الزنار ثم فتحه ليسا إلا ربحاً للوقت خلال الجلسات مع الهمهمة، آه تباً لحلقات أولئك الحدادين الفلامنديين، يا لها من خدعة، وذلك الثرثار السعيد الذي كان فيما مضى ينفخ الزجاج عند أبيه صانع القناني، صار رجلاً متأملاً نكد المزاج لا يهتم بما يقال له وإنما يتقصّى ظلال العيون ليسبر ما لا يقال، ولم يكن ليجيب عن سؤال قط قبل أن يسأل وأنت ما رأيك، والرجل المرح الخامل الذي كانه خلال تجارته بالمعجزات، أصبح رجلاً نشيطاً إلى حد الإنهاك ومشاءً لا يكلّ، شديد البخل أيضاً وطماعاً، خضع للحب على عجل، وللنوم رأساً على الأرض بكامل ثيابه ممدداً على بطنه بلا وسادة، وتخلّى عن طموحه المبكر إلى شخصية متميّزة، كما تخلّى عن ميوله الوراثية كلّها وعن كل تردد محبّب لأن يبقى نافخ قنانٍ صغيراً. كان يجابه أخطر مخاطر السلطة، ويضع أحجاراً أساسية في الأماكن التي لن يوضع فيها

حجر ثانٍ، يقطع شرائط التدشين في أراضٍ معادية ويتحمل حشداً من الأحلام المبددة، والآهات المكبوتة، والأوهام المستحيلة لدى تتويجه حشداً من ملكات الجمال العابرات المنيعات دون التمكن من لمسهنّ ولو لمساً خفيفاً، ذلك أنه رضي بأن يعيش إلى الأبد قدراً ليس قدره، وهو أمر قام به ليس طمعاً أو اقتناعاً وإنما لأن فيه ضمانة لحياته مقابل تهمة محتال رسمي مدى الحياة مع راتب خمسين «بيزو» شهرياً وحظوة العيش مثل الملوك دون أن يتحمل آفة أن يكون كذلك حقاً، وماذا تودّون أحسن من ذلك. وانصهار الشخصيتين هذا، بلغ منتهاه في ليلة من ليالي الرياح الهوج حيث أنه فاجأ باتريسيو أراغونيس منصرفاً إلى مشاهدة البحر وهو يتنهّد بين روائح الياسمين الناعمة وسأله بقلق طبيعي جداً إن كانوا قد دسّوا له من عشب الأقونيط السام في طعامه لأنه يبدو جانحاً مع التيار ومدفوعاً برياح غير مواتية، لكن باتريسيو أراغونيس أجابه كلا سيدي الجنرال، إنه تسمم آخر أدهى، وكان في ذلك السبت قد توّج ملكة كرنفال، ورقص معها أول فالس، ولم يعد الآن قادراً على إيجاد بوابة الخروج من مثل تلك الذكرى، ذلك أنها كانت أجمل فتاة في العالم، فتاة لم تُجبلْ لأي كان، سيدي الجنرال، آه لو أنك رأيتها، ولكن الثاني رد وهو يتنفس الصعداء، سحقاً، تلك الأمور لا تحدث للرجال إلا عندما يُحرمون من النساء، ثم اقترح عليه مصادرتها كما فعلت العديد من الساحرات بمحظياته السابقات، سأثبتها لك على السرير بالقوة بواسطة أربعة عساكر يمسكونها لك من رجليها ويديها بينما أنت تخترقها به، سُحقاً، تنكحها عميقاً، إن أكثرهن انزعاجاً يتلوين غضباً في البداية وبعد ذلك يتوسلن إليك لا تتركني هكذا سيدي الجنرال لا تتركني مثل

تفاحة وردٍ بائسة ببذارها، لكن باتريسيو لم يكن يرغب في مثل ذلك أو بالأحرى كان يرغب في أكثر من ذلك، كان يريد أن يغدو محبوباً، إذ أنها من أولئك النساء اللواتي لا يجذبهن معسول الكلام سيدي الجنرال، سترى ما سترى لما تراها سيدي الجنرال، وهذا الأخير بدوره وصف له، كمخدر، الدروب الليلية المعتّمة الموصلة إلى حجرات محظياته وأمره أن يستعملهن «على السريع» مثله وهو بكل ثيابه، وغطس باتريسيو أراغونيس بكل ثقة في مستنقع المحبوبات المستعارات، كان يظن أنهن سوف يسكنّ حميًا رغباته الجامحة، على أن الحميًا كانت تصل به إلى حد نسيان شروط الإعارة، فكان حينئذٍ يجامع كي يتسلّى، ويتوقف أمام التفاصيل ويصطدم سهواً بالمجوهرات المخفية عند النساء الأشد بخلاً، مثيراً فيهن تنهدات وضحكات استغراب في العتمة، يا للداعر سيدي الجنرال، يقلن له، مسنّ وملتهب حباً رغم ذلك ومن حينه لم يعد أحد الرجلين أو إحداهن ليدرك أبداً من كان ابن من ولا ابن من مع من، ذلك أن أبناء باتريسيو مثل أبنائه تماماً كانوا يولدون كلهم قبل الأوان. هكذا أصبح باتريسيو أراغونيس رجل السلطة الأول، الرجل المحبوب أكثر وربما المهاب أكثر، وتمتع هو بوقت أوسع كي يهتم بالقوات المسلحة باليقظة العائدة إلى بداية عهده، ليس لأن القوات المسلحة دعامة نظامه، كما كنا نعتقد جميعاً، وإنما بالعكس، لأنها كانت عدوّه الطبيعي الأكثر خطورة، لذلك كان يحمل بعض الضباط على الاعتقاد بأن ضباطاً آخرين يراقبونهم، كان يبعث البلبلة فيما بينهم ليمنعهم من التآمر، ويمدّ الثكنات بثماني رصاصات خلّبية مقابل عشر رصاصات حقيقية ويرسل إليها البارود ممزوجاً بالرمل البحري بينما يحتفظ في القصر بالذخيرة

الجيدة في متناول يده، مقفلاً عليها بمفاتيح تظل معلّقة في حمالة مفاتيحه التي لا نسخة أخرى لها والخاصة بالأبواب التي لا يمكن لغيره أن يفتحها، وعندما يفعل ذلك يكون في حماية الظل الهادئ لشريكي مدى الحياة الجنرال رودريغو دي أغيلار، المدفعي الخبير وخريج الأكاديمية الذي كان أيضاً وزيره للدفاع وقائد حرس القصر ومدير مخابرات الدولة وواحداً من الفانين النادرين المسموح لهم بالتغلّب عليه في لعبة الدومينو، إذ أنه فقد ساعده الأيمن بينما كان يحاول إبطال مفعول عبوة من الديناميت قبل مرور سيارة الرئاسة البرلينية بعدّة أشهر في مكان محاولة الاغتيال. كان يشعر بالاطمئنان بفضل حماية الجنرال رودريغو دي أغيلار وإرشاد باتريسيو أراغونيس بحيث صار يكثر من الظهور كل يوم ويتجرأ على النزهة في المدينة بصحبة مرافق واحد في عربته القديمة الخالية من الشعارات فيتأمل عبر ستائرها كاتدرائية الحجارة المذهبة المتغطرسة والتي أعلن بمرسوم أنها أجمل كاتدرائية في العالم، ويرصد البيوت القديمة المبنية من الحجر والإسمنت بقناطرها الآتية من عصور نائمة، ونباتات عباد الشمس المتجهة صوب البحر، والشوارع المبلطة في حي نواب الملوك بروائحها القريبة من رائحة فتيل محترق، الآنسات الداكنات وهن يغزلن الدانتيلا بذوق متناه ما بين أصص القرنفل وعناقيد الجهنمية المعرّشة في الشرفات المضاءة، ومربعات دير راهبات الباسك المتسقة مع التمارين نفسها على البيان القيثاري القديم في الساعة الثالثة بعد منتصف النهار، والتي احتفلت بأول ظهور للنجم المذنّب، وكان يخترق متاهة السوق البابلية وموسيقاها القاتلة وشعارات اليانصيب، عربات بائعي «الغوارابو»، شبكات بيض الأغوانة[٥]، سلع

الأتراك المتنوعة[٦] المبيضة من لفح الشمس، واللوحة المريعة للفتاة الممسوخة عقرباً لأنها لم تطع والديها، زقاق البؤس حيث نساء بلا رجال يخرجن عاريات مع أولى خيوط المساء لاقتناء غربان بحرية زرقاء وأسماك قجّاج ورديّة[٧] ويتلاسنّ بشدة مع بائعات الخضر بينما غسيلهن يجف على شرفات الخشب المنقوش، كان يفاجئ ريح المحار المتعفّن، ألق البجعات المعتاد بعد اجتياز منعطف الشارع، فوضى نقوش أكواخ الزنوج الماثلة على نتوء الجبل المندفع في الخليج، وفجأة، ها هوذا، إنه الميناء، آه الميناء، الرصيف بألواحه الإسفنجية، بارجة المارينز القديمة أكثر طولاً وأشد عتمة من الحقيقة، زنجيّة المرفأ وهي تبتعد بعد فوات الأوان كي تفسح المجال للسيارة المجنونة، شاعرة بأنها أصيبت إصابة قاتلة برؤية شيخ الشفق الذي كان يتأمل المرفأ بالعينين الأشد حزناً في العالم، إنه هو، صرخت مرتاعة، «فيفا الماتشو»[٨] هتفت، «فيفا» صرخ الرجال، النساء، الأطفال، الذين كانوا يهرعون ركضاً من الخمارات ومن المطاعم الصينية الحقيرة، «فيفا»، صرخ أولئك الذين شكلوا قوائم الخيل وأوقفوا السيارة لمصافحة يد السلطة، وكانت العملية ذات فعالية وغير منتظرة بحيث لم يكد يتمكن من إبعاد يد مرافقه المسلحة في الوقت المناسب وهو يؤنبه بصوت متوتّر، لا تكن أحمق، أيها الملازم، دعهم يحبّوني، وكان شديد التحمس لاندفاعات المحبّة تلك واندفاعات أخرى مشابهة في الأيام التالية، إلى حد أن الجنرال رودريغو دي أغيلار وجد صعوبة كبيرة في صرفه عن تلك الفكرة اللعينة، فكرة الخروج للنزهة، في عربة مكشوفة كي يتمكن رعايا الوطن من رؤيتي، نعم، إنها بادرة عاهرة، إذ أنه لم يكن يشك بتلقائية اقتحامه الأول للميناء، وإن كان

تلقائياً فعلاً، فإن الاقتحامات الأخرى كانت منظمة من قبل أجهزته الأمنية بالذات حتى يُجَارُوهُ دون مخاطر، كان مفتوناً بنسمات المحبة في عشية خريفه إلى درجة أنه خاطر بالخروج من المدينة بعد مرور سنوات عديدة، فأعاد سير القطار العتيق المدهون بألوان الراية الوطنية، مركبته القديمة التي تتسلق بقوائمها الأربع مرتفعات مملكته الشاسعة المضجرة فاتحةً طريقها عبر أدغال الأوركيديا والبلسمين[٩] الأمازونية، مذعرة القرود وطيور الفردوس والفهود النائمة على السكة الحديدية، حتى تبلغ القرى الباردة المقفرة في هضاب مسقط رأسه العالية ومحطّاتها حيث تنتظره جوقات جنائزية، وأجراس مأتمية، ولافتات ترحيب بالنبيل الذي لا اسم له والجالس إلى يمين الثالوث المقدس، أين احتشد على الطرقات هنود متسكعون تدفقوا لرؤية السلطة المتلفعة بظلال المقطورة الرئاسية، أما أولئك الذين يتمكّنون من الاقتراب فإنهم لم يكونوا ليروا سوى عينين ذاهلتين خلف الزجاج المغبر، كانوا يرون الشفتين المضطربتين، وكف يد من دون محتد تحيّي من حافة المجد البعيدة، بينما أحد مرافقيه يحاول إبعاده عن النافذة، احذر يا سيدي الجنرال الوطن بحاجة لسيادتك، فيجيب وهو نصف نائم، لا مدعاة للهلع أيها الكولونيل، هؤلاء القوم يحبونني، وكان ذلك هو ما يحدث سواء في تعرّجات القطار عبر الصحراء أم على متن السفينة ذات الدولاب الخشبي التي تترك ذيولاً من فالسات بيانو آلي في عطر الغاردينيا الناعم وفي سمندر[١٠] الروافد الاستوائية المتعفّن، متجنبّة هياكل التنين العظميّة العائدة إلى عصور ما قبل التاريخ وجزر القدر حيث حوريات البحر يأتين ليلدن، والعشايا الكوارثية في مدن شاسعة أصبحت أثراً بعد عين، حتى تبلغ

القرى الحارة المهجورة التي كان سكانها يهرعون إلى ضفّة النهر لمشاهدة السفينة الخشبية المدهونة بألوان الراية فلا يكادون يتوصلون إلى رؤية يد خفية مجهولة في قفاز الساتان وهي تحيي من كوة القمرة الرئاسية، أما هو فكان يشاهد على الضفة الجماعات الملوحة بأوراق «المالنغا» على هيئة أعلام، ويشاهد أولئك الذين يرتمون في الماء مع «دانتا» حيّة[١١] أو «أنيام»[١٢] ضخمة في حجم قدم الفيل، أو سلة من طيور «الغرّة» لتحضير طبخة السانكوشو[١٣] الرئاسية، فيتنهّد من التأثر في ظلال القمرة الكنسية، انظر كيف يُقبلون، كابتن، انظر كم يحبونني. وفي شهر ديسمبر عندما يصبح عالم الكاريبي شفافاً مثل الزجاج، يتسلق الطرق الساحلية الصخرية في عربته القديمة حتى يبلغ البيت المعلق في ذروة المرتفع الصخري وهناك يقضي فترة ما بعد منتصف النهار في لعب الدومينو مع الديكتاتوريين القدامى لبلدان أخرى من القارة، مع آباء أوطان أخرى، مخلوعي التيجان، وفّر لهم ملجأ طيلة سنوات عديدة وقد بدأوا يشيخون الآن على مقاعد الشرفات في ظل رحمته حالمين بأوهام فرصة جديدة للإبحار والعودة، متحدثين مع أنفسهم، محتضرين وهم أموات أصلاً في بيت الطمأنينة الذي شيده من أجلهم على تلك الشرفة البحرية، بعد أن استقبلهم جميعاً مثل رجل واحد، إذ كانوا كلهم يلوحون مع الفجر مرتدين بزة العظمة بالمقلوب فوق بدلة النوم، مع صندوق يحتوى على الأموال المنهوبة من الخزانة العامة وعلبة أوسمة في الحقيبة، وقصاصات صحف ملصقة على دفاتر محاسبة قديمة و«ألبوم» صور تُظهر كل واحد منهم أثناء استقباله الرسمي الأول كما لو كان الأمر يتعلق بتقديم أوراق اعتماد قائلاً انظر، جنرال، هذا أنا لما كنت ملازماً

أول، وهنا كان يوم التقليد، وهنا الاحتفال بالذكرى السادسة عشرة لتولّي السلطة، وهنا، انظر، جنرال، أما هو فكان يهبهم اللجوء السياسي من دون أدنى اهتمام أو تمحيص في وثائقهم لأن بطاقة الهوية الوحيدة لرئيس مخلوع يجب أن تكون برأيه شهادة وفاته، ثم يستمع بازدراء مماثل إلى الخطبة القصيرة المزيّفة أتقبل حسن ضيافتكم الكريمة بينما تطالب عدالة الشعب بمحاسبة المغتصب، وهي الصياغة الأبدية للاحتفالات التبجيلية الساذجة التي سمعها فيما بعد من قبل المغتصب بدوره ثم من قبل مغتصب المغتصب، كما لو أنّ أولئك المغفلين لم يتعلّموا أنّ الذي يسقط في السياسة ينهار إلى الأبد، كان يؤويهم جميعاً لعدة شهور في المبنى الرئاسي ويجبرهم على لعب الدومينو حتى آخر فلس معهم، وبعد ذلك أمسك بي من يدي وأخذني إلى النافذة التي تطل على البحر، اشتكى معي من هذه الحياة القحبة التي لا تعرف سوى طريق واحد، ثم عزّاني بوهم الذهاب إلى هنالك، انظر، إلى هنالك، إلى ذلك البيت الضخم الذي يشبه عابرة محيط جانحة في ذروة الصخور، حيث أهبك هناك غرفة حسنة التهوئة وغذاء طيباً، ووقتاً، متّسعاً من الوقت من أجل النسيان بصحبة رفاق سوء طالع آخرين، مع شرفة بحرية حيث كان يطيب له الجلوس بعد منتصف النهار في أيام شهر ديسمبر ليس رغبة في لعب الدومينو مع تلك الزمرة من ديكة القن بل ليستمتع بحظّه الحقير في كونه ليس على مثل حالهم، لكي يتأمل ذاته في مرآة مأساتهم متوحلاً مع سعادته في المستنقع الكبير، حالماً وحده، مقتفياً، بخطى الذئب، الخلاسيات المطمئنات وهن يكنسن البيت المدني في غبش بداية الصباح، مشتمّاً فيهن رائحة الملاذ الليلي و«البريانتين»[١٤]

الرخيص، وكان يترصد الفرصة التي يختلي فيها بإحداهنّ فيضاجعها مثل الدّيك خلف أبواب المكاتب بينما هنّ يقهقهن في الظل، يا لك من بطل سيدي الجنرال، دائماً ملتهب حباً رغم الشيخوخة، أما هو فكان يقبع حزيناً بعد المضاجعة ويشرع في الغناء كيما يتعزى هناك حيث لا أحد يتمكن من سماعه كان يغني يا قمر كانون الثاني، يا مشعاً في الأعالي، انظر إليّ على مشنقة نافذتك حيث القدر رماني، كان يغني واثقاً من محبّة شعبه خلال كل شهور أكتوبر تلك دون أدنى تطيّر إلى حدّ أنه علّق أرجوحة للنوم في فناء قصر الضاحية حيث تعيش أمه بندثيون ألفارادو وتقضي القيلولة تحت ظلال شجر التمر الهندي، من دون مرافقين، حالماً بأسماك تائهة تبحر في المياه الملونة داخل الحجرات، متنهداً، الوطن هو أجمل الابتكارات، أماه، لكنه لم يكن ينتظر قط إجابة الشخص الوحيد الذي تجرّأ على توبيخه بسبب رائحة البصل الزنخة تحت إبطيه، كلا، كان يدخل القصر الرئاسي من البوابة الكبيرة مفعماً بذلك الموسم الرائع في الكاريبي خلال شهر يناير مباركاً تلك المصالحة مع العالم في قمة الشيخوخة، وتلك الأماسي الخبازية التي بعد أن صادق خلالها على السلام مع القاصد الرسولي، صار الأخير يقوم بزيارات مرتجلة له محاولاً هديه إلى ديانة المسيح بينما هما يحتسيان الشوكولا ويقضمان قطع البسكويت، وهو يحتج ضاحكاً حتى الموت ويقول إذا كان الله فحلاً بالقدر الذي تتحدث عنه، فقل له إذاً أن يخلصني من هذه الدويبة التي تطن في أذني، ثم يفك الأزرار التسعة في فتحة بنطاله ويريه الفتق العجيب، قل له أن يزيل انتفاخ هذا المخلوق، لكن القاصد الرسولي ينطلق رابط الجأش في وعظ رواقي مطوّل محاولاً

إقناعه بأن كل ما هو حق، حتى وإن لم يعجبك، يأتي من الروح القدس، ثم يرافقه حتى الباب عند أولى أضواء الليل مستغرقاً في الضحك حتى الموت، لا تتعب نفسك، أبتاه، يقول له، لماذا تريدني أن أهتدي بما أنني في كل الأحوال أقوم بما ترغبون فيه أنتم الكهنة، سحقاً. ثم تنهار تلك الطمأنينة فجأة في إحدى حلبات صراع الديكة المنسية حيث يقتلع ديك قاتل رأس منافسه ويمزقه بضربات منقاره أمام جمهور ثمل بالدم وجوقة سكارى تغني الرعب بألحان مهرجانية، وكان هو الوحيد الذي فاجأ الشؤم وأحس به جلياً ووشيكاً إلى حد أنه أمر مرافقيه خفية، بإيقاف أحد الموسيقيين، ذاك الذي ينفخ في الرماثة(١٥)، وبالفعل وجد عند الآخر بندقية مصقولة الأنبوب، واعترف تحت التعذيب أنه كان ينوي استخدامها خلال فوضى الخروج، بلى، قال، كان الأمر واضحاً، إذ أنني كنت أنظر إلى الجميع، والجميع كانوا ينظرون إليّ إلا نافخ الرماثة الدنيء هذا الذي لم يجرؤ على النظر إليّ ولو مرة واحدة يا للمغفل المسكين، إلا أنه كان يدرك أن ذلك لم يكن سبب قلقه العميق، إذْ واصل القلق إزعاجه ليلاً حتى في البيت المدني بعد أن أوضح له رجال أمنه ما من سبب يجعلك تقلق سيدي الجنرال، نحن سادة الموقف، أما هو فمنذ نذير صراع الديكة تعلّق بباتريسيو أراغونيس كما لو أنه لم يكن شخصاً آخر وإنما هو ذاته، وأخذ يرغمه على مشاركته في الطعام وكان يناوله ليشرب من عسله في ملعقته الخاصة حتى يمتلك على الأقل، سلوى الموت سوياً إذا كان ما يبتلعانه مسموماً، فكانا يجتازان الغرف المنسية مثل هاربين ويمشيان على السجادات حتى لا يسمع أحد خطواتهما الضخمة الخفية، خطوات الفيلة الآتية من مملكة سيام، ويبحران معاً في

ضوء المنارة المتقطع المتسلل من النوافذ والذي يغرق حجرات البيت كل ثلاثين ثانية باللون الأخضر عبر دخان روث البقر والوداعات الكئيبة للسفن الليلية على البحور الغافية، ويقضيان أوقات الظهر بكاملها وهما يتأملان المطر، يحصيان السنونو مثل عاشقين عجوزين في كآبات أيلول، منقطعين عن العالم بحيث لم يخالجه شك في أن صراعه الضاري من أجل أن يوجد مرتين، كان يغذي الشك النقيض، فكان الاعتقاد الأكثر صحة في كل مرة هو أن وجوده كان ينحسر، ولقد راح مرة في سبات، فضوعفت الحراسة ولم يسمح لأحد بالدخول إلى البيت الرئاسي أو الخروج منه، ورغم ذلك نجح أحدهم في اختراق الحراسة المشددة ورأى الطيور الخرساء في الأقفاص، الأبقار وهي تشرب من جرن المعمودية، البرصى والمشلولين نائمين تحت أشجار الورد، وكان الجميع يبدون في منتصف النهار كأنهم بانتظار فجر جديد، بما أنه مات ميتة طبيعية أثناء نومه كما أعلنت ذلك قصعات العرافات إلا أن السلطات العليا ظلت تؤخر النبأ محاولة فض نزاعاتها السابقة بمؤامرات دموية. ورغم جهله بتلك الضوضاء، فقد كان يعي أن شيئاً ما يوشك أن يحدث في حياته، فكان يقاطع لعبة الدومينو البطيئة كي يسأل الجنرال رودريغو دي أغيلار وماذا عن انزعاجاتنا أيها الشريك، نحن نراقب الموقف سيدي الجنرال، لا شيء جديداً، كان يرصد علامات الأحداث في أكوام الحطب الكئيبة عند الضوء الآتي من احتراق روث البقر في الأروقة، ويرصدها في المستنقعات القديمة من دون أن يجد جواباً لقلقه، وكان يذهب لرؤية أمه بندثيون ألفارادو في محل إقامتها في الضاحية عندما تخف الحرارة، فيجلسان لتنشق الهواء الندي تحت شجر التمر الهندي. هي في كرسيها

الهزاز وقد أنهكتها الشيخوخة من دون أن تؤثر في مداركها ناثرة حفنات الذرة للدجاجات والطواويس التي كانت تنقر الحب في الفناء، وهو، على كرسي من خشب السوحر[١٦] مطلي بالأبيض، متروحاً بقبعته، متابعاً بنظرة الشيخ الشبق الخلاسيات الكبيرات اللواتي كن يأتين له بعصير الفواكه الطازجة الملون مع هذه الحرارة يعطش المرء سيدي الجنرال، بندثيون ألفارادو كان يفكر، لو أنك تعلمين كم madre mia[١٧] يزعجني هذا العالم، أريد الفرار ولست أدري إلى أين، يا أمي، بعيداً عن هذه القذارة، ورغم ذلك لم يكن يفصح عن مكنونات صدره حتى لأمه، وكان يدخل المنزل الرئاسي مع أولى أضواء المساء ويدفع باب الخدم ويستمع وهو يجتاز الأروقة إلى قرقعة أعقاب أحذية الحراس الذين يحيّونه، لا جديد يذكر سيدي الجنرال كل شيء على ما يرام، ولكنه يعلم أن ذلك ليس أكيداً وأنهم يخدعونه عادة ويكذبون عليه خوفاً، وأن لا شيء كان حقيقياً في أزمة الشك تلك التي تجعل مجده مرّ المذاق وتسلب منه حتى ميوله القديمة إلى القيادة منذ مساء صراع الديكة المزعج، فكان يطيل الاضطجاع على بطنه فوق الأرض من دون أن ينام حقاً، ويسمع من النافذة المطلة على البحر، الطبول النائية الكئيبة وأنغام «الغايتا» الحزينة التي تحتفل بأحد أعراس الفقراء، بالاندفاع نفسه الذي قد يحصل احتفالاً بموته، وسمع وداع سفينة قرصنة ترفع مرساتها في الثانية صباحاً دون إذن من الربان، سمع أوراق الورود المتفتحة مع بدايات الصباح، كان عرقه بارداً، وكان يتأوّه رغماً عنه، دون توقف، متهجّساً بغريزته الوحشية من مساء مداهم حيث كان عائداً من قصر الضاحية، وفاجأه لغط العامّة في الطريق، وكانت نوافذ تفتح وتغلق،

بينما كان سرب هلع من السنونو يخترق سماء ديسمبر الشفافة، فرفع قليلاً ستارة مركبته ليرى ما يحدث قائلاً لنفسه، هذا شيء جميل، أمّاه، هذا شيء جميل، كان يحدث نفسه، شاعراً بارتياح عظيم وهو يشاهد البالونات في السماء، البالونات الحمراء والخضراء، البالونات الصفراء مثل برتقالات كبيرة زرقاء، البالونات التائهة التي لا تحصى وتشق طريقها عبر رفّ طيور السنونو المذعورة، وتطفو برهة في نور الساعة الرابعة الكريستالي ثم تتفرقع فجأة، في انفجار جماعي مكتوم يطلق آلافاً مؤلّفة من المناشير على المدينة، زوبعة من رسائل الهجاء الطائرة، في حين ينتهز الحوذي الفرصة لكي يتوارى بعيداً عن ضوضاء السوق دون أن يتعرف أحدهم على عربة السلطة، إذ كان الجميع يتنازعون من أجل مزق البالونات، سيدي الجنرال، يزعقون بما كتب على البالونات من الشرفات، يكررون غيباً ليسقط القمع، الموت للطاغية، وحتى حرس البيت الرئاسي كانوا يقرؤون في الأروقة بصوت مرتفع اتحاد الجميع دون تمييز طبقي ضد استبداد القرون، المصالحة الوطنية ضد الفساد وغطرسة العسكر، انتهى عهد الدماء، يصرخون، انتهى النهب، وكانت البلاد بأكملها تستيقظ من سباتها الدهري في اللحظة التي كان يدخل فيها من بوابة المرآب ويحاط علماً بالنبأ الرهيب سيدي الجنرال، باتريسيو أراغونيس جرح جرحاً قاتلاً بسهم مسموم. قبل سنوات، وعشية خلاف عابر، اقترح على باتريسيو أراغونيس المراهنة بحياتهما «وجهاً» أو «قفا» (طرّة أو نقشاً)، «قفا» تموت أنت، «وجه» أموت أنا، لكن باتريسيو أراغونيس أوضح له أنهما سيتعادلان في الموت إذ أن كل النقود كانت تحمل الرأس نفسه، رأسيهما، على وجهها وقفاها، عندئذ

اقترح الرّهان نفسه بلعبة الدومينو، في عشرين جولة، وقبل باتريسيو أراغونيس، لي الشرف وبكل سرور سيدي الجنرال أرجو أن توفّر لي إمكانية الربح وقبل بذلك، اتفقنا، ولعبا جولة، ثم اثنتين، ثم لعبا عشرين جولة وربح باتريسيو أراغونيس الجولات كلها، أما هو فلم يكن ليربح في العادة إلا لأنه كان محظوراً على خصمه أن يتغلب عليه، وخاضا معركة طويلة وضارية حتى بلغا الجولة الأخيرة دون أن يتمكن من ربح جولة واحدة، وجفّف باتريسيو أراغونيس عرقه بكمّ قميصه متنهداً، أنا حقاً متأسف سيدي الجنرال لكنني لا أريد أن أموت، وشرع هو يجمع قطع الدومنيو، ثم أخذ يرتبها في الصندوق الصغير قائلاً، كما ينشد معلم المدرسة أمثولة، بأنه هو الآخر لا يجد مبرراً للموت على طاولة دومينو إلا إذا تم ذلك في وقته ومكانه وبميتة طبيعية وهو نائم، كما تنبأت بذلك منذ بداية عهده، جفنات العرّافات، وربما بطريقة أخرى، لو أمعنا في ذلك أكثر، إذ أن بندثيون ألفارادو لم تلدني كي أثق بالعرافات وإنما من أجل أن أتولى القيادة، وفي نهاية المطاف أنا هو أنا، وليس أنت، إذاً اشكر الله أن ذلك لم يكن سوى لعبة، قال له مبتسماً، دون أن يتصوّر آنئذ أو أبداً أن تلك الدعابة المريعة سوف تتحول إلى واقع عشية دخل غرفة باتريسيو أراغونيس ووجده يصارع غمرات الموت، دون علاج، ودون أي أمل في الخلاص من السمّ، فحياه من العتبة، ماداً يده، ليدخلك الله فراديس جنانه، أيها الفحل، الموت في سبيل الوطن شرف عظيم. ومكث معه في احتضاره البطيء، كانا وحدهما في الغرفة، هو مقدّماً اللعقات المسكّنة التي كان باتريسيو أراغونيس يبتلعها دون أن ينبس بكلمة شكرٍ قائلاً له أتركك لوقت قصير مع عالمك القذر سيدي

الجنرال إذ أن قلبي يقول لي إنّنا سنتقابل عما قريب في أعماق جهنّم. أنا أكثر التواء من سِلَوْرٍ بحري بسبب السمّ وأنت رأسك على كفّك متسائلاً أين تضعه، ليكن كلامي دون أدنى احترام سيدي الجنرال، إذ بإمكاني الآن الاعتراف لك بأنني لم أحبك قط كما تتصور وأنني منذ عصر القراصنة البعيد حيث كان من نكد طالعي أن جنحت إلى منطقة نفوذك، وأنا أصلي لكل تُقتل ولو بنزاهة، حتى أتخلص من حياة اليتم هذه التي أكرهتني عليها، بداية من فلطحتك لقدميَّ بمدقة حتى تصيرا مثل قدميك، قدميْ رجل سائر في نومه، ثم بثقبك لخصيتيّ بمخزر إسكافي حتى يصير لي فتق ثم بإكراهي على التجرّع من صمغ البطم حتى أكف عن معرفة القراءة والكتابة، الأمر الذي كلّف أمي جهوداً كبيرة وكلفني ثمناً غالياً من أجل النسيان، وبإكراهك لي دائماً على تمثيلك في الاحتفلات العامة التي تخشاها ليس لأن الوطن بحاجة إليك حياً كما تقول وإنما لأن أكثر الرجال جرأة يصاب بالهلع عندما يتوّج قحبة جمال دون أن يعرف من أين سيصيبه الموت، ليكن كلامي من دون أدنى احترام سيدي الجنرال، أما هو فكان تأثره بوقاحة باتريسيو أراغونيس أقل من تأثره بنكرانه للجميل، باتريسيو أراغونيس الذي أحللته مثل ملك في قصر، وأعطيته ما لم يعطه أحد لأحد على وجه هذه الأرض، رغم أنني منحتك نسوتي، الأفضل عدم التحدّث في ذلك سيدي الجنرال، نعم من الأفضل أن يُخصى المرء بمطرقة على أن يقلب أمهات على الأرض كما لو كان الأمر يتعلّق بدمغ عجول بالحديد، مع فارق كون أولئك الهجينات فاقدات الروح لا ينتفضن على الأقل تحت الحديد وهنّ لا يركلن ولا يلتوين ولا يتذمّرن مثل العجول، كما أنهنّ لا يطلقن دخاناً

من أردافـهنّ ولا تشم لهنّ رائحـة شائطة، وما يطلب من النسـاء على الأقل، من النساء الحقيقيات، هو أن يتركن أجسادهنّ أجساد الأبقار الميتة، لأداء الواجب مع مواصلة تقشير البطاطا والصراخ برفيقاتهنّ أرجوكِ ألقي نظرة على المطبخ قليلاً حتى أكمل هنا، إن طبخة الرزّ ستحترق، ليس هناك سواك للاعتقاد بأن هذه القذارة هي الحب سيدي الجنرال، لأنه الشكل الوحيد الذي تعرفه، ليكن كلامي دون أدنى احترام، ثم إنه بدأ بالزعيق، اخرسْ، سحقاً، اخرس وإلا سوف تدفع الثمن غالياً، ولكن باتريسيو أراغونيس واصل كلامه دون أدنى نية في المزاح لماذا أسكت إذا لم تكن قادراً على أي شيء سوى قتلي، وأفضلُ ما تفعله هو أن تغتنم الفرصة لمجابهة الحقيقة سيدي الجنرال، ولتعلم أن لا أحد قط قال لك ما يفكر فيه حقاً، ولكن جميعهم يقولون لك ما تودّ أنت أن تسمعه في حين يركعون أمامك والبنادق تشهر ضدك من الخلف، أشكر على الأقل الصدفة التي شاءت أن أكون الرجل الأكثر شفقة عليك في هذا العالم إذ أنني الوحيد الذي يشبهك، الوحيد الذي له شرف نقل كل ما يقوله الجميع عنك، بأنك لست رئيس أحد وأنك لست مديناً بعرشك لمدافعك وإنما للإنكليز الذين نصبوك عليه، مدعوماً فيما بعد بالغرينغو[١٨] وببحارة مدرعاتهم، ولقد رأيتك تطوف هنا وتطوف هناك دون أن تعرف من أين ستبدأ بالقيادة عندما صرخوا بك لقد تركناك مع فوضى زنوجك لكي نرى كيف ستتدبر أمرك دوننا، ومن يومها لم ترفع مؤخرتك عن كرسيك لا عن إرادة بل عن عجز، اعترف بذلك، إذ تعرف أن اليوم الذي يرونك فيه بكامل ثيابك في الشارع مثل أيّ فانٍ بسيط سوف ينقضون عليك انقضاض سرب من كلاب الصيد على أيّل كي

يجعلوك تدفع ثمن مجزرة «سانتا ماريا- دل- ألتار»، عذاب السجناء الذين كان يلقى بهم في خنادق القلعة كي تمزقهم التماسيح وهم أحياء، وعذاب أولئك الذين كانوا يسلخون أحياء ثم ترسل جلودهم فيما بعد إلى عائلاتهم لأخذ العبرة، قال له، وهو يُخرج من بئر أحقاده التي لا قرار لها، سلسلةً لا تنتهي من الوسائل الشنيعة المستخدمة من قبل نظام الجرائم الفظيعة هذا، حتى اللحظة التي لم يعد فيها قادراً على الكلام أكثر إذ أن ممشاطاً من نار مزّق أحشاءه، فارتخى قلبه وانتهى إلى القول دون نية إهانة وبنبرة توسل تقريباً، أحدّثك جاداً سيدي الجنرال، اغتنم فرصة موتي لتموت معي، لا أحد أرفع مني مقاماً كي يقول لك ذلك إذ لم يخطر ببالي قط أن أشبه أياً كان وبالأخصّ أن أكون بطلاً وطنياً، فقط نفّاخ زجاج يصنع قارورات، مثل أبي، لا تتردد سيدي الجنرال، ليس ذلك مؤلماً كما يُظن، ولفظ تلك الكلمات بنبرة صدق جلية إلى حدّ أن غضبه خفت ولم يسعفه بالردّ، وحاول أن يسنده على كرسيه عندما رأى أنه بدأ يتلوّى ماسكاً معدته بكلتا يديه، منتحباً بدموع الألم والخزي، يا للمصيبة سيدي الجنرال كلي براز، فظنّ أن الآخر كان يقول ذلك بالمعنى المجازي ويقصد القول إنه يموت من الخوف، إلا أن باتريسيو أراغونيس، أجابه كلا، أقصد أنني أفعلها تحتي سيدي الجنرال، فتمكّن من التوسل إليه تمالك نفسك يا باتريسيو أراغونيس، تمالك نفسك، نحن جنرالات الوطن ينبغي أن نموت مثل سائر الناس رغم أننا نبعث فيه الروح، لكنه قال ذلك متأخراً إذ أن باتريسيو أراغونيس ترنّح وسقط عليه مرتعشاً ألماً وملطخاً بالبراز وبالدموع. وفي المكتب المجاور لقاعة الاجتماعات توجّب عليه فرك الجسد بقفاز من شعر وبالصابون لطرد أثر الموت وألبسه

القماش الذي جهزه، ووضع له ضمادة الكتان، ولفّافاته والمهماز الذهبي على الكعب الأيسر، شاعراً في الأثناء أنه صار الرجل الأكثر عزلة على وجه الأرض، وأخيراً محا كلّ أثر لتلك الخدعة واحتاط لأصغر التفاصيل كما رآها في مياه القصاع، كي تكتشف منظّفات المنزل في الغداة، الجسد مثلما تمّ لهن اكتشافه، ممدّداً على وجهه فوق أرض المكتب، ميتاً لأول مرة ميتة زائفة طبيعية، خلال نومه، مع بدلة القماش دون شعارات، واللفافات والمهماز الذهبي، والساعد الأيمن تحت رأسه على هيئة وسادة. في تلك المرة أيضاً لم ينتشر الخبر فوراً، بعكس ما كان يأمل، ولكن مرّت ساعات وساعات، ساعات حذر وتحقيقات سرية، وأخذ وعطاء بين ورثة النظام الذين كانوا يحاولون كسب الوقت بتكذيب اللغط حول موته بمختلف أنواع الصيغ المتضاربة، وجلبت أمه بندثيون الفارادو إلى شارع السوق حتى نلاحظ أن هيئتها لا تدل على الموت، ألبستُ، سيدي، فستاناً مزيناً بالزهور مثل قردة سيرك، وأجبرتُ على شراء قبّعة من ريش الببغاء كي يرى كل الناس جيداً أنني سعيدة، وتوجّب عليّ أيضاً شراء كل التفاهات التي كنا نجدها في المحلات، أما أنا فكنت رغم ذلك أقول كلا، سيدي، ليس الوقت وقت تسوّق وإنما وقت بكاء بما أنني تيقنت أن الميت إنما كان ابني، وكنت أجبر على الابتسام عندما يُمطرني المصوّرون بوابل من الصور، أما العسكريون فكانوا يقولون إنه ينبغي ذلك من أجل الوطن بينما هو يتساءل منزعجاً في مخبئه ماذا يحدث إذاً في دنيا الأحياء حتى لا يتحرك شيء منذ الخدعة المتعلّقة بوفاتي، ترى كيف أشرقت الشمس مرتين من دون تذمّر، لماذا هذا الجو الاحتفالي، أماه، لماذا هذه الحرارة الدائمة رغم موتي، كان يتساءل مستغرباً، ولكن

في اللحظة نفسها، دوّت طلقة مدفع مباغتة في قلعة الميناء، ودقت نواقيس الكاتدرائية وبدأت جلبة عارمة ترتفع حتى البيت المدني، حشد من الناس أيقظهم أهم نبأ في العالم من ركود القرون، عندئذٍ فتح باب الغرفة قليلاً وظهر في قاعة الاجتماعات، فرأى نفسه مسجّى في غرفة الموتى، أكثر موتاً وزركشة من كل بابوات المسيحية المتوفين، متأثراً بفظاعة جسده الرجولي وخزْيِه، جسد جندي ممدد بين الزهور والوجه أدكن تحت مسحوق الأرز، الشفتان مطليتان، واليدان الشبيهتان بيدي فتاة قوية ثاويتان على الصدر المدجّج بميداليات الحروب، وهو في البزة العظيمة البرّاقة مع الشموس العشر الغسقية لجنرال الكون، اللقب الذي ابتُكِرَ من أجله بعد وفاته، حسام ملك الكبّا[١٩] الذي لم يجرّد من غمده مطلقاً، لفافات الجلد المبرنق على ساقيه مع المهمازين الذهبيين، مآثر القوّة والأمجاد الحربية الكئيبة المتقلصة في حجمه البشري، حجم اللوطي الكسول، سحقاً إذاً، كلا، هذا ليس أنا، حدث نفسه ساخطاً، هذا ليس صحيحاً، يا للفوضى، حدّث نفسه متأملاً الموكب الذي يتقاطر حول جثته، وللحظة نسي عزمه الغامض على المخادعة وأحس بنفسه مهاناً، متقلصاً بصرامة الموت أمام عظمة السلطة، ورأى الحياة من دونه، رأى بنوع من الشفقة حال الرجال الذين هجرتهم سطوته، رأى بقلق خفي أولئك الذين لم يأتوا إلا لحل اللغز، أذاك هو حقاً أم لا، رأى شيخاً حيّاهُ بتحية ماسونية كما كانت الحال خلال الحرب الفيدرالية، رأى رجلاً في حِداد يقبّل خاتمه، رأى تلميذة تضع زهرة على جثته، رأى بائعة سمك غير قادرة على تصديق حقيقة موته وهي تترك سلّة أسماكها الطازجة تقع وتضمّ الجثة المعطرة باكية ومولولة إنه هو، يا يسوع الطيب، من لنا

بعده، كانت تبكي، إذاً إنه هو، كانوا يصرخون، إنه هو، صرخ الحشد المختنق تحت شمس ساحة الأسلحة، ولكن فجأة انقطع قرع النواقيس الحزينة وأعلن ناقوس الكاتدرائية ونواقيس الكنائس كلها عن أربعاء الحبور، وانطلقت أسهم الفصح النارية وطقطقت مفرقعات الفرح، ودقت طبول التحرير، وشاهد جماعات المهاجمين تندفع من النوافذ مع صمت الحرس المتواطئين، رأى المحرضين الشرسين يشتتون موكب الجنازة بالهراوات ويوقعون بائعة السمك شديدة الحزن على الأرض، رأى أولئك الذين كانوا يتعلقون بالجثة في ضراوة، الرجال الثمانية الذين أخرجوه من حاله السحيقة في القدم ومن زمنه الوهميّ، زمن زهرة العشاق ودوّار الشمس ثم نقلوه وهم يجرجرونه على السلالم، وأولئك الذين انتشلوا أمعاء جنّة البؤس والرخاء ظنّاً منهم أنهم كانوا يتلفونها إلى الأبد بإتلاف عرين السلطة، وتخريب تيجان الأعمدة اليونانية المصنوعة من الكرتون المقوّى، وستائر المخمل والأعمدة البابلية المتوّجة بالنخيل المرمري، وبرمي الأقفاص الملأى بالطيور من النوافذ، وكذلك عرش حكام المستعمرات، والبيانو المذنّب، وبتدنيس أقبية الموتى مع رماد الرجال العظام المجهولين، بتمزيق البسط حيث الصبايا كنّ ينمن على جندولات خيبة، بتحطيم رسوم الأساقفة والعسكريين القدامى الزيتية ولوحات المعارك البحرية التي لا يمكن تخيّلها، بإفناء العالم حتى لا تتبقى في ذاكرة الأجيال القادمة أدنى ذكرى عن سلالة العسكريين الملعونة، ثم نظر إلى الشارع عبر فجوات النافذة كي يقدّر مساحة الدّمار الذي أحدثه رمي النوافذ وبنظرة واحدة رأى من الأعمال الشائنة ونكران الجميل ما لم يرَ ويبكِ مثله قط بعينيَّ منذ ولدت، أمّاه، رأى أرملاته فرحات يهجرْن

البيت من أبواب الخدمة ساحبات خلفهنّ بالحِبَال بقرات اسطبلاتي، ناقلات أثاث الحكومة، وأواني قفير نحلكِ، ماما، رأى أبناء الهجناء يجهزون أوركسترا مرحة بأدوات المطبخ، وبكنوز الكريستال ومعدّات ولائم البذخ منشدين زاعقين كما الرّعناء بابا مات تحيا الحريّة، رأى الجمر متقداً في ساحة الأسلحة لإحراق الرسوم الرسمية والتقاويم التي كانت توجد في كل مكان وفي كل آن منذ بداية عهده، ورأى جسده ذاته يجرجر مخلّفاً على بلاط الشارع عدداً من النياشين والكتفيات وأزرار السترة ذات العرى المزخرفة ونسالة الدّيباج والمشابك المزركشة وشرابات حسام وأوراق لعب، وشموس ملك الكسوف والخسوف العشر الحزينة، أمّاه، انظري في أية حال جعلوني، كان يقول، وهو يشمّ على لحمه بالذات، خزي البصاق ومباول المرضى التي كانت تفرغ من أعالي الشرفات أثناء مروره، مرتاعاً من إمكانية أن يُمزّق وتأكله الكلاب والعقبان بين العواء الهائج ورعود الناريات احتفالاً بكرنفال موتي. وبعد مرور الكارثة واصل سماع المطالع الغنائية النائية في مساء بلا ريح، وواصل قتل زيزان أذنيه بالضربات نفسها لأنها كانت تعرقل تفكيره، واصل مشاهدة احمرار الحرائق في الأفق، والمنارة التي كانت تخطط جسمه بالضوء الأخضر كل ثلاثين ثانية عبر فجوات النافذة، كان يفاجئ تنفس الحياة اليومية التي تستعيد مجراها الطبيعي كلما صار موته شبيهاً بميتات أخرى ماضية، وكذلك فيض الواقع المتدفق الذي كان يحمله نحو أرض الشفقة والنسيان التي لا اسم لها، سحقاً إذاً، ليذهب الموت إلى الجحيم صرخ، مغادراً مخبأه، متيقناً بحماس من أنّ ساعته، ساعته الكبرى، قد أزفت، اجتاز القاعات المنهوبة مجرجراً ساقيه

المتثاقلتين، ساقي العائد من موته وهو بين بقايا حياته السابقة، في الظلمات التي كانت تعجّ بروائح الزهور المحتضرة وشموع الدفن، دفع باب قاعة المجلس الوزاري، واستمع عبر الهواء الدخاني إلى الأصوات المنهكة حول طاولة خشب الجوز الطويلة، ورأى عبر الدخان أنّ كل من كان يرغب في حضورهم كانوا حاضرين، من الليبراليين الذين باعوا الحرب الفيدرالية، وإلى المحافظين الذين اشتروها، جنرالات القيادة العليا، ثلاثة من وزرائه، كبير المطارنة والسفير «شنونتنر»، كلهم مجتمعون من أجل الخديعة نفسها، متذرعون باتحاد الجميع ضد استبداد القرون لاقتسام غنيمة موته فيما بينهم، كانوا غارقين في مستنقعات الجشع بحيث لم ينتبه أحد منهم إلى ظهور الرئيس بلا قبر، والذي ضرب ضربة واحدة على الطاولة بكف يده وصاح آه آه ولم يجد شيئاً آخر يفعله إذ ما كاد يرفع يده حتى بخّرهم الرعب ولم يبق في القاعة الفارغة سوى منافض السجائر الطافحة، فناجين القهوة، الكراسي المقلوبة على الأرض، وشريكي مدى الحياة الجنرال رودريغودي اغيلار في بدلته الريفية، كان صغيراً هادئاً وهو يبعد الدخان بيده الوحيدة كي يشير إليه ارتمِ أرضاً سيدي الجنرال الآن سوف يشتد القتال. وانبطح كلاهما على الأرض في اللحظة نفسها التي بدأ فيها نشيد الرشاشات المميت أمام المنزل، المهرجان الدموي لعناصر الحرس الرئاسي، الذين كانوا ينفذون بكل سرور وشرف عظيم سيدي الجنرال أمره الضاري بألا يخرج أحد حياً من مؤامرة الخيانة هذه، فقضوا برشاشاتهم على أولئك الذين حاولوا الهروب من الباب الرئيسي، واصطادوا مثل العصافير أولئك الذين كانوا يلوحون من النوافذ، ومزقوا بالقنابل الفوسفورية أولئك الذين كانوا

ينجحون في الخروج من الفخ ويلجأون إلى البيوت المجاورة، وأجهزوا على الجرحى بما أن كل متبق على قيد الحياة، حسب المعيار الرئاسي، هو عدو لدود مدى الحياة، أما هو فكان في الأثناء منبطحاً على مقربة خطوتين من الجنرال رودريغو دي اغيلار متحملاً ذلك الوابل من الزجاج المكسور والأنقاض التي كانت تدخل من النافذة لدى كل انفجار، وكان يهمهم دون انقطاع كما لو كان يصلي، انتهى، يا شريكي، انتهى الإزعاج، من اليوم فصاعداً، سوف أحكم وحدي دون أولئك الغوغائيين، يجب البتّ في الغداة ومنذ الساعة الأولى فيما يجدي وفيما لا يجدي من أجل التغيير، وإذا أعوزتنا الكراسي فليتمّ مؤقتاً اقتناء ست مناضد جلدية خفيفة من النوع الرخيص، وبعض حصائر القنّب كي تعلّق هنا وهناك وتسد الثغرات، وبعض التفاهات الأخرى وسوف يصير الوضع جيداً هكذا، لا صحون ولا ملاعق ولا شيء آخر، سوف آتي بها من الثكنات لأنني لم أعد راغباً في أن يكون لي جنود ولا ضباط، سحقاً لهم، ليسوا صالحين إلا لشرب حليبي وفي الساعات العصيبة، لقد رأيت ذلك بنفسك، يبصقون على اليد التي تطعمهم، وأظل أنا وحيداً مع حرسي الأوفياء الشجعان، كلا، كلا، لن أشكل وزارة جديدة، ياللفوضى، لا أحد سوى وزير صحة جيد، الأمر الوحيد الضروري في الحياة، وربما أيضاً وزير آخر يكون له خط جميل من أجل ضرورات المراسلة، وهكذا يمكن تأجير مباني الوزارات والثكنات وتوفير الأموال من أجل التعهدات، ليست السواعد هي التي تنقصنا وإنما المال، سوف نعيّن خادمتين نشيطتين، واحدة من أجل المطبخ وتدبير البيت والثانية من أجل الغسيل والكي، وسوف أتولى أنا أمر الأبقار والطيور عندما أحصل

عليها. انتهى زمن مشاجرات القحاب في المراحيض والبرصى تحت أشجار الورد. انتهى زمن الدكاترة المختصين في كيت وكيت والذين يعرفون كل شيء والسياسيين الذين يرون كل شيء، إذ في نهاية الأمر نحن هنا في بيت الرئيس لا في فوضى زنوج، كما كان باتريسيو أراغونيس يقول بصدد ما ذكره له اليانكي، أشعر أنني أكثر من كافٍ لمواصلة الحكم حتى مرور النجم المذنّب مرّة أخرى بل حتى مروره عشر مرات أخرى، لأنني لن أموت أبداً على ما أتصوّر، سحقاً إذاً، فليمت الآخرون بدلاً مني، كان يقول، مسترسلاً دون أن يتوقف للتفكير، كما لو كان يستظهر درساً حفظه عن ظهر قلب، ولقد صار يعرف منذ الحرب أنه بالتفكير بصوت عالٍ يتمكن من تخويف خوفه من عبوات الديناميت التي كانت تزعزع البيت، وكان قد شرع في تهيئة خطط من أجل الغداة، ومن أجل ما بعد منتصف نهار القرن المقبل، عندما دوّت الضربة القاضية الأخيرة في الشارع، وزحف الجنرال رودريغو دي أغيلار مثل الثعبان حتى بلغ النافذة، وأمر، هاتوا سلال النفايات لحمل القتلى، ثم خرج من القاعة، ليلة سعيدة سيدي الجنرال، ليلة سعيدة يا شريكي، وشكراً جزيلاً، أجابه، وهو لايزال منبطحاً على وجهه فوق المرمر الجنائزي في قاعة مجلس الوزارة، وبعد ذلك ثنى ساعده الأيمن على هيئة وسادة ونام فوراً، أكثر عزلة من أي وقت آخر، مهدهداً بزوبعة الأوراق الذاوية في خريفه المحزن الذي كان قد بدأ تلك الليلة وإلى الأبد في الأجساد المحترقة وفي مستنقعات الأقمار الحمراء بعد المذبحة. ولم يلجأ إلى تنفيذ أي قرار من قراراته المزمعة إذ أن الجيش تفكك تلقائياً، والأفواج تشتّتَتْ، والضباط القليلين الذين قاوموا حتى اللحظات الأخيرة في

ثكنات المدينة وعشر ثكنات أخرى في البلاد أبادهم الحرس الرئاسي بمساعدة متطوعين مدنيين، أما الوزراء المتبقون على قيد الحياة فقد هاجروا مع الفجر ولم يبق سوى الاثنين الأكثر وفاء، أحدهم كان طبيبه الشخصي والآخر أحسن خطاط في الأمة، ولم يكن عليه أن يتقبل المساعدات الأجنبية ذلك أن خزينة الدولة كانت تغصّ بخواتم الزواج وأكاليل الذهب التي جمعها أنصار غير متوقعين، ولم يكن عليه أيضاً أن يقتني حصائر القنّب ولا المناضد الجلدية ولا كل ما هو بأبخس الأثمان لترميم خسائر الهجوم على النوافذ، فقبل الانتهاء من إعادة الهدوء إلى البلاد كانت قاعة الاجتماعات مرمّمة وأكثر بذخاً من السابق وكان هناك أقفاص ملأى بالطيور في كل مكان ببغاوات الغواكامايا الوقحة، وببغاوات ملكية تنشد على الكورنيش نعم لإسبانيا ولا للبرتغال، ونساء رصينات وخدومات كن يحافظن على نظافة المنزل وترتيبه مثل سفينة حربية، وظلت لازمات أناشيد المجد نفسها تدخل من النوافذ، مفرقعات الفرح نفسها، الأجراس الجذلى نفسها التي بدأت الاحتفال بموته، وها هي الآن تحتفل بخلوده، بينما تظاهرة دائمة تدور في باحة الأسلحة ترافقها هتافات التحام أبدي ولافتات كبيرة، حفظ الله العظيم الذي قام في اليوم الثالث من بين الأموات، مهرجان لا ينتهي، لم يكن عليه أن يمدّه بالمكائد السرية كما كان يلجأ إلى ذلك في أزمنة أخرى، إذ أن شؤون الدولة تنظمت تلقائياً، وتحرك الوطن، واستفرد هو بالحكومة ولم يعد يأتي أحد ليكدّر إرادته بالأقوال أو بالأفعال، كان متوحداً بمجده بحيث انعدم وجود أي عدو له، ومن هنا اعترافه بالجميل لشريكي مدى الحياة الجنرال رودريغو دي أغيلار، وإذا كان قد كفّ عن الانزعاج من استهلاك

الحليب في الثكنات فقد صفّ في الباحة بالمقابل الجنود العاديين الذين تميّزوا بالشجاعة وبحس الواجب، وبمجرد الإشارة نحوهم بإصبعه حسب ما توحي له نزواته يرفعهم إلى أعلى الرتب، غير متجاهل أنّه إنما كان بذلك يعيد بناء الجيش الذي يبصق على اليد التي تطعمه، أنت أرقيك إلى رتبة كابتن، وأنت ماجور، أنت كولونيل، ماذا أقول، جنرال، وكل الآخرين، برتبة ملازم أول، يا شريكي، تتحدث عن جيش، وكان جدّ متأثر بأولئك الذين بكوا أمام جثته إلى حد أنه أمر بإحضار الشيخ صاحب التحية الماسونية والرجل الذي قبّل خاتمه وكان في حداد لكي يقلدهما ميدالية السلام، وأمر بإحضار بائعة السمك لكي يهبها، كما قالت، ما هي بحاجة إليه أكثر، أي بيتاً كثير الغرف لتعيش فيه مع أبنائها الأربعة عشر، وأمر بإحضار التلميذة التي وضعت زهرة على جثته لكي يقدم لها: ما أرغب فيه أكثر من أي شيء آخر في العالم هو أن أتزوج من بحّار، على أنه رغم تلك الأعمال المشجعة لم يشعر بلحظة هدوء مادام لم يشاهد جماعات المهاجمين الذين نهبوا وخرّبوا مقر الرئاسة، موثقين ومهانين، ويسّرت له ذاكرة الحقد العنيدة التعرّف عليهم واحداً واحداً، فوزّعهم في مجموعات مختلفة حسب فداحة الخطأ، أنت هنا، مشيراً إلى الذي كان يقود الهجوم، وأنتم هناك، لأولئك الذين أوقعوا بائعة السمك شديدة الحزن على الأرض، وأنتم هنا، لأولئك الذين سحبوا الجثة من النعش وجروها على السلالم وفي أوحال البرك، والبقية إلى هذا الجانب، الأنذال، وفي الواقع لم تكن العقوبة هي التي تهمه بقدر ما كان يهمه أن يبرهن لنفسه بأن تدنيس الجسد والهجوم على البيت لم يكونا عملاً شعبياً تلقائياً وإنما كانا عملية قذرة قام بها

مرتزقة، فتعهّد أمام نفسه باستجواب المساجين شخصياً وبصوت عالٍ كي يسمع منهم طوعاً الحقيقة الوهمية التي كانت تقضّ مضجعه، ولكنْ اذهبْ إلى الجحيم، عندئذ أمر بتعليقهم على عارضة أفقية مقيدي الأرجل والأيدي ورؤوسهم إلى أسفل مدّة ساعات وساعات، ولكنْ اذهبْ إلى الجحيم، عندئذ أمر برمي أحدهم في أحد خنادق الباحة ليشاهد الآخرون تماسيح الكايمان وهي تمزّقه وتلتهمه، ولكنْ اذهبْ إلى الجحيم، عندئذ اختار واحداً من المجموعة الرئيسية وأمر بسلخه حيّاً على مرأى الجميع، والجميع رأوا الجلد الليّن الأصفر مثل غشاء جنين ولد حديثاً وأحسّوا بأنهم تبللوا بذلك السائل الدموي الغالي من لحم مسلوق يحتضر واثباً على بلاط الباحة، وشرعوا يعترفون بما كان يريد، لقد قدّم لهم أربعمائة بيزو ذهبية كي يجرّوا الجثة حتّى مرافق السوق، ولم يكونوا يريدون ذلك لا عن نزوة ولا عن طمع في المال إذ لم يكونوا يضمرون شيئاً ضدّه، خاصة إذا كان قد مات، ولكن خلال اجتماع سرّي حيث كان هناك جنرالان من القيادة العليا، أرهبوا بكل أنواع التهديدات، ولذلك السبب عزمنا على التنفيذ سيدي الجنرال، نقسم بشرفنا، عندئذ تنفس الصعداء وأمر، ناولوهم طعاماً، دعوهم يستريحوا هذه الليلة ثم ألقوا بهم غداً للتماسيح، لقد خُدع هؤلاء الفتيان المساكين، قال متنهداً، ثم عاد إلى القصر وروحه متحررة من آثار الشك، مهمهماً، الأمر واضح، سحقاً إذاً، الأمر واضح، هؤلا القوم يحبونني. وتصميماً منه على إخماد آخر وميض من القلق الذي أشعله باتريسيو أراغونيس في قلبه، فقد قرر أن تكون عملية التعذيب تلك هي النهائية في عهده، فقتلت التماسيح، وهدمت غرف التعذيب حيث أمكن سابقاً سحق كل العظام عظمة إثر

عظمة دون القتل، وأعلن العفو العام، وتم التخطيط للمستقبل بفضل فكرة سحرية أظهرت أن كل الاضطرابات المزعجة في هذا البلد كانت تأتي من واقع أنه كان للقوم متسع من الوقت للتفكير، فتم البحث إذاً عن طريقة لإشغالهم، أقيمت ألعاب مارس الزهرية والمسابقات السنوية لملكات الجمال، وشيّد ملعب لكرة القدم أكبر ملعب في الكاريبي، وألزم فريقنا بشعار النصر أو الموت، وصدر أمر بتأسيس مدرسة مجانية للكناسة في كل مقاطعة وقد واصل طلابها المتحمسون بالتشجيعات الرئاسية كنس الشوارع بعد أن انتهوا من كنس البيوت، ثم الطرقات فالدروب القروية، بحيث نقلت أكداس النفايات ثم أعيدت من مقاطعة إلى أخرى دون التوصل إلى معرفة كيفية التخلص منها، ولقد حدث ذلك في مواكب رسمية مع أعلام الوطن ولافتات عريضة: حفظ الله الطاهر الذي يسهر على نظافة الأمة. بينما كان يجرجر قدمي الحيوان المتأمل البطيئتين باحثاً عن صيغ جديدة لتسلية السكان المدنيين، شاقاً طريقه بين البرصى والعميان والمشلولين الذين كانوا يتوسلون إليه أن يقدم لهم ملح العافية، معمّداً باسمه في صحن الدار أطفال محميه ما بين المتزلّفين بلا حياء الذين كانوا يعلنونه فريداً فذاً إذ لم يعد يلجأ إلى مساعدة أحد مهما كان يشبهه، كما توجّب عليه أن يكون صنو نفسه في قصر السوق العمومي، حيث كانت تصل يومياً أقفاص وأقفاص لطيور عجيبة منذ عرف عن أمّه بندثيون الفارادو أنها مربية طيور، وهكذا، وإذا كان بعضها يرسل إليه تملقاً وبعضها الآخر سخرية فإنه سرعان ما انعدم وجود حيز شاغر لتعليق أقفاص إضافية، ورغب أيضاً في الانصراف إلى معالجة عدّة قضايا عموميّة في الوقت نفسه، بحيث لم

يعد بالإمكان التمييز بين الخادم والمخدوم في هذه الحشود التي تملأ الباحات والمكاتب، فهدم عديداً من الجدران لاستقبال الناس وفتح عديداً من النوافذ لرؤية البحر، حتى صار مجرّد المرور من قاعة إلى أخرى بمثابة مخاطرة على جسر مركب شراعي جانح في فصل الخريف عندما تتعارض الرياح. كانت صابيات[٢٠] آذار هي الرياح المثابرة على الدخول من شباك المنزل، أما الآن فقد صاروا يقولون له إنها رياح السلام سيدي الجنرال، كان طنين الأذنين نفسه هو الذي يزعجه منذ سنوات، غير أن طبيبه بالذات قال له إن ذلك ليس سوى طنين السلام سيدي الجنرال، ذلك أنه منذ اليوم الذي وجد فيه ميتاً للمرّة الأولى، تحولّت كل أشياء الأرض وكل أشياء السماء إلى أشياء السلام سيدي الجنرال، وكان هو يصدق ذلك، ويصدّقه بشدة إلى حدّ أنه في شهر ديسمبر، تسلق الشاطئ الصخري مجدّداً حتى بلغ منزل قمة الصخور، رغبة منه في الترويح عن النفس والاستماع إلى مآسي زمرة الدكتاتوريين القدامى التواقين إلى الوطن، فكانوا يتوقفون عن لعبة الدومينو ليحكوا له، لنقل مثلاً إنني الستّة المزدوجة ولنفترض أن المحافظين العقائديين يمثلون الثلاثة المزدوجة، وهكذا لم أتوجس من تحالفهم السرّي، تحالف الماسونيين والاكليروس من كان ليتوقع ذلك، تبّاً لهم، دون الانتباه إلى الحساء الذي أخذ يتجمّد في الصحن بينما أحدهم يفسّر أن آنية السكر هذه مثلاً كانت البيت الرئاسي، هنا، وهناك المدفع الوحيد الذي كان لايزال في حوزة العدو، وهو ذو مدى أربعمائة متر مع الريح المواتية، بحيث كان يكفي انحراف بسيط باثنين وثمانين سنتمتراً كي أكون غير موجود هنا معكم، وحتى أولئك الأكثر تخمة بسمك المنفى كانوا يبددون آمالهم في رصد سفن

أوطانهم في الأفق، وكانوا يتعرفون عليها من لون دخانها، ومن صدأ أبواقها، وينزلون إلى الشاطئ تحت رذاذ بداية الصباح باحثين عن الجرائد التي استخدمها البحارة للفّ ما كانوا يخرجونه من طعام السفينة، فيجمعونها من سلال النفايات ويقرأونها صفحة قبل أخرى حتى السطر الأخير لكي يتنبّأوا بمستقبل البلاد عبر الأنباء، فلان مات وعلان تزوج فلانة، بعض الفلانات عزموا فلاناً ولم يعزموا علاناً إلى احتفال بذكرى مولد، مستكشفين قدرهم بحسب اتجاه سحابة كبيرة من سحب العناية الإلهية ستنفجر فوق بلادهم بزوبعة قيامة حقيقية تجعل الأنهار تفيض وهذه بدورها تحمل حواجز السدود والأخيرة تكتسح القرى وتنشر البؤس والطاعون في المدن، وسوف يقبلون إلى هنا متضرعين إليّ كي أنقذهم من الكارثة والفوضى، سوف ترون، ولكن في انتظار اللحظة الحاسمة ينبغي الانفراد بالمنفيّ الأصغر سناً والطلب إليه هلا تفضّلتم بأن تدخلوا لي هذا الخيط في الإبرة عليّ أن أرتق هذا البنطال الذي لا أريد أن ألقي به إلى النفايات، تعرفون جيداً أن ذلك يمس بالعواطف، ويتم غسل الملابس خلسة وتشحذ شفرات الحلاقة التي استخدمها القادمون الجدد، وكل واحد يعتزل في غرفته كي يأكل إذ لا ينبغي أن يكتشف الآخرون أنه يعيش على الفضلات ولا ينبغي عليهم أن يدركوا كم هو مخجل هذا البنطال الملطخ بسلس بول الشيخوخة، وذات خميس وككل أيام الخميس الأخرى كنا نقلد لواحد منّا شعاراته على آخر قميص له، ونلفّ جسده في علمه، ونعزف له نشيده الوطني، ثم نرسله ليحكم النسيان، في أعماق الصخور دون ثقل آخر سوى قلبه المنقرض، دون فراغ آخر في هذا العالم سوى فراغ مقعد بحري على مصطبة دون آفاق حيث كنا نجلس لنقترع

على تركة المتوفّي، إذا كان قد خلف تركة، سيدي الجنرال، تصور، كم هي بائسة هذه الحياة المدنية بعد المجد العظيم. وفي شهر ديسمبر آخر بعيد، ويوم تدشين البيت، شاهد من هذه المصطبة سحابة من الجزر الوهمية، جزر الأنتيل، وقد نبهه إليها أحدهم بإصبعه الممدود نحو واجهة البحر، رأى بركان المارتينيك المضمّخ بالطيب، هنالك سيدي الجنرال، رأى مستشفى المسلولين، والعملاق الأسود في قميصه الدانتيل يبيع باقات «الغاردينيا» لزوجات الحكام عند فناء البازيليك، رأى سوق باراماريبو الجهنمي، هنالك سيدي الجنرال، السرطانات التي تخرج من البحر عبر الأجمات ثم تتسلق طاولات بائعي المثلجات، وهنالك الألماس المرصّع في أسنان الجدات السود اللواتي يبعن رؤوس هنود حمر وعروق زنجبيل وهن جالسات على مؤخراتهن الصامدة برباطة جأش تحت وابل المطر، رأى الأبقار المرصعة بالذهب نائمة على شاطئ تاناغوارينا سيدي الجنرال، وأعمى غويرا صاحب الرؤى الذي يقبض ريالين مقابل طرد دجاجة الموت الحبشية بِكَمان من وتر واحد، رأى الثالوث المحرق في شهر أغسطس، والسيارات السائرة إلى الوراء، والهندوسيين الخضر وهم يتغوّطون وسط الشارع أمام دكاكينهم التي تعرض أقمصة دودة القزّ ورسوم موظفي الامبراطورية الصينية القديمة محفورة على ناب الفيل بأكمله، رأى كابوس هايتي وكلاب الدرواس الزرقاء، عربة الثيران التي تجمع الموتى من الشوارع منذ الصباح الباكر، رأى زهور الخزامى الهولندية تنمو في براميل بنزين كوراساو، بيوت طواحين الريح مع سقوفها الخاصة بالثلج، عابرة المحيط الغامضة وهي تخترق قلب المدينة عبر مطابخ الفنادق، رأى سور قرطاجنة دي أنديا الحجري، وخليجها المغلق بسلسلة، النور الثابت

في الشرفات، الهياكل العظمية لجياد عربات الأجرة وهي تواصل تثاؤبها خلف معالف حكام المستعمرات ورائحة الغائط المنبعثة منها، سيدي الجنرال، يا لها من أعاجيب، هه اعترف بأن العالم واسع، فعلاً هو كذلك، وليس واسعاً فقط وإنما ماكر أيضاً إذ أن صعوده في شهر ديسمبر إلى منزل الشاطئ الصخري لم يكن من أجل الثرثرة مع هؤلاء الهاربين الذين يكرههم مثل صورته الشخصية في مرآة المحن، وإنما ليكون حاضراً في لحظة المعجزة عندما تفيض أنوار ديسمبر فيتمكن من رؤية عالم الآنتيل بأكمله مجدّداً من البارياد حتى فيراكروز، وينسى عندئذ من كان يحمل بين يديه ورقة الثلاثة المزدوجة، وينحني على الشرفة ليتأمل سحابة الجزر غريبة الأطوار وهي تلوح مثل تماسيح نائمة في حوض البحر، وكان أثناء تأمله للجزر يتذكر ويعيش مجدّداً يوم تلك الجمعة التاريخية من شهر أكتوبر حين خرج من غرفته فجراً وفوجئ بالجميع في البيت الرئاسي يرتدون قبّعات حمراء، والمحظيات الجديدات يكنسن القاعات ويغيّرن ماء الأقفاص مرتديات قبّعات حمراء، وكان حالبو الأبقار في الإسطبلات والحرس في أكواخهم والمشلولون على درجات السلم والبرصى تحت أشجار الورد كانوا معتمرين أيضاً قبعات كرنفال الأحد الحمراء، فأخذ يبحث عندئذ عما حدث في العالم أثناء نومه حتى صار قوم منزله وسكان المدينة يتجولون بقبعات حمراء حاملين معهم في كل مكان سبحة من الجلاجل، وانتهى به البحث بأن وجد أحدهم ليقول له: الحقيقة سيدي الجنرال، وصل غرباء يرطنون بتعابير جميلة إذ أنهم لا يقولون البحر وإنما اليمّ ويسمّون الغواكامايات ببغاوات، وزورق الخشب جذعيّة، وخطاف صيد الأسماك رمحاً، وعندما

رأونا نقبل لاستقبالهم سابحين حول باخرتهم التجأوا إلى أعلى الصواري صارخين بعضهم ببعض، انظروا كيف أنهم حسنو التكوين ولهم أجسام سليمة ووجوه جميلة، وشعور في طول هلْب[٢١] الخيول تقريباً. وعندما رأوا أننا كنا مطلين كي لا تتقشر جلودنا من لفح الشمس أخذوا يتململون مثل الدرّة[٢٢] المبتلّة زاعقين انظروا كيف أنهم يتخضّبون بألوان غامقة، لونهم مثل لون سكان جزر الكناري، لا هم سود ولا هم بيض، ولم نفهم، يا للفوضى لماذا كانوا يسخرون منا بتلك الطريقة سيدي الجنرال إذ كنا مثلما ولدتنا أمهاتنا، أما هم فقد كانوا مكسوّين بالمقابل مثل أعرج البستوني في ورق اللعب رغم الحرارة، وهي كلمة ينطقون بها على طريقة المهربين الهولنديين، أما شعرهم فهو مصفّف مثل النساء رغم كونهم رجالاً، إذ أننا لم نر أثراً لامرأة واحدة، وكانوا يصرخون بأننا لا نفهم كلام المسيحيين في حين كانوا هم الذين لا يفهمون ما كنا نصرخ به، أقبلوا نحونا في زوارقهم التي يسمّونها جذعيّات، كما ذكرنا ذلك، وكانوا يستغربون وجود حسكة لسمكة شابل على رؤوس خطافاتنا ويسمونها سنّ سمكة، وقايضونا كل ما كنا نملك مقابل هذه القبعات الحمراء وسبحات اللؤلؤ الزجاجية التي علقناها حول رقابنا إرضاء لهم، وكذلك مقابل جلاجل الصفيح هذه التي لا تساوي مرابطياً[٢٣] واحداً، وصحفات ونظارات وخردوات فلمندية، وكل ما هو رخيص الثمن سيدي الجنرال، وعندما وجدناهم خدومين ومهذّبين أوصلناهم برفق حتى الشاطئ إلا أن الفوضى بدأت عندئذ، فبين بادلني هذا الشيء بذاك، وأبادلك هذا مقابل هذا، حدثت مضاربات شيطانية وسرعان ما تخلص الجميع من ببغاواتهم، ودخانهم، ورؤوس الكاكاو، وبيض الأغوانة، وكل ما خلقته

السماء، إذ أنهم كانوا يقبلون كل شيء ويعطون كل ما يملكونه بسخاء، بل أبدوا رغبة في مبادلة أحدنا بصدريّة مخمل كي يعرضونا في بلدان أوروبا، تخيل ذلك سيدي الجنرال، يا لها من بلبلة. لكنه كان غارقاً في التأمل بحيث عجز عن فهم ما إذا كانت قصّة المجانين هذه من اختراع حكومته، فعاد إلى غرفته وفتح النافذة على البحر آملاً في اكتشاف بارقات جديدة تمكّنه من توضيح هذا الاضطراب، عندئذٍ رأى عند حافة الرصيف بارجة كل يوم، تلك التي هجرتها قوات المارينز، وخلف البارجة، اكتشف مراكب الكارافيل الثلاثة راسية في البحر القاتم.

* * *

الهوامش:

١- الخُدج : جمع خديج وهو المولود تلقيه أمه قبل أوانه بغير تمام الأيام وإن كان تامّ الخلق .
٢- روبن داريو : شاعر نيكارغوي (١٨٦٧-١٩١٦) كان شعره منطلقاً لحركة «الحداثة» في أمريكا اللاتينية .
٣- المارينز : اسم يطلق على الجنود الرماة في البحرية الأمريكية والبريطانية .
٤- السنة الكبيسة (٣٦٦) يوماً ، وتأتي كل أربع سنوات ، ويكون شهر شباط (فبراير) فيها مكوناً من ٢٩ يوماً .
٥- عظاءة أمريكية عاشبة .
٦- الأتراك : اسم يطلق في كولومبيا ، على السوريين واللبنانيين وكل من هم من أصل عربي إجمالاً .
٧- القجاج : سمك بحري لذيذ الطعم قريب من المرجان .
٨- عاش الفحل .
٩- البلسمينة أو المجزاعة نبات تستعمل أزهاره الجميلة والمختلفة الألوان ، للزينة .

١٠- من العظاءات الخرافية .
١١- حيوان استوائي أمريكي يشبه الخنزير .
١٢- نوع من نباتات المناطق الحارة ذات الدرنات النشويّة .
١٣- طبخة يسلق فيها الموز مع خضار أخرى محلية .
١٤- مستحضر زيتي لتلميع الشعر .
١٥- نوع من الأبواق .
١٦- نوع من الصفصاف .
١٧- أمّاه .
١٨- لقب لسكان الولايات المتحدة الأميركية الأنكلو-سكسونيين .
١٩- الملك الذي عليه شارة القلب في ورق اللعب .
٢٠- رياح تهب من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي .
٢١- الهُلْب : شعر ذيل الحصان .
٢٢- الدرّة : أنثى الببغاء .
٢٣- Maravedi اسم نقود إسبانية قديمة مشتق من العربية ، وكان المرابطي الواحد يساوي قرشاً ونصف القرش .